السيد محمد حسين فضل الله

مع الحكمة في خط الإسلام

مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان

السّيّد محمّد حسين فضل الله

مع الحكمة في خطّ الإسلام

مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م

مؤسسة الوفاء، بيروت . لبنان - ص.ب : ١٤٥٧ - ت : ٣٩٢٦٨٣

مقدمة الناشر

راسخ طَوْدُ الإسلام ، ضاربة جذوره في عميق الأرض، طاعنة قممه السوامق في عنان السماء،تنهزم رياح التحريف والتشويه العواتي أمام صلابته وكبريائه لتستكين على جنباته مخذولة مهدودة القوى، حيرى، حانية نواصيها ، لا تدري لأمرها مخرجاً .

راسخ طود الإسلام ، ومن على ذراه الشماء تنحدر سيول العلم والكمال البشري، رائق ماؤها ، عذب فرات ،سرور للناظرين مناهل للظامئين ، حرام على المارقين ، الخانعين لأنفسهم ومشتهياتها ، والمبهورين بحضارات الغرب الزائفة بما تلقيه اليهم من فتات موائدها العفنة .

راسخ طود الإسلام ما دامت همم العلماء العاملين ماضية في مسيرتها لا تنيها غوادر الزمن ، ولا عقبات المحن ، يلقون من مكنونات لبابهم درر العلم والفكر ، مجبولة بطيب نفحاتهم الجليلة ليضوع في مدارس البحث والجد والتحصيل كتباً وموسوعات تدق بأوتادها في قواعده فيزداد رسوخاً وثباتاً .

نعم راسخ طود الإسلام ، وسيزداد رسوخاً ، طالما ان الإسلام

يتجدد ، ويتسع أفقه على أيدي علمائنا الاجلاء، بما يقدمونه من فكر اسلامي، وبحوث اسلامية انما هي في الحقيقة مصابيح وضاءة تنير الدرب وتهدي الى خط الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة .

والعلامة السيد محمد حسين فضل الله واحد من هؤلاء العلماء الأجلاء، قدم ولا يزال للمسلمين في العالم الإسلامي عامة فكراً إسلامياً رائعاً تشع به مؤلفاته الجمة المزينة بها المكتبة الإسلامية اليوم ، وهذا رفد آخر من روافد فكره ندفع به الى الساحة الاسلامية آملين ان يزيد في اشراقتها وسناها والله ولي التوفيق .

٨/ ٢/ ١٤٠٦ مؤسسة الوفاء

٢٢/ ١٠/ ١٩٨٥ بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هـذه كلمـات ، لم تكتب في وقت واحـدٍ . . بـل كتبت في فترات مختلفة ، لتكون إفتتاحية لمجلة « الحكمة » الاسـلامية التي كانت تصدر قبل خمس سنوات .

وقد كان التزامن بين بداية القـرن الخامس عشـر الهجري ، وبـين صدور المجلّة ، سببـاً في حركـة هـذه الكلمـات من أجـل إيجـاد تصور مبـدئيٍّ عما يمكن أن يتحـرك فيه المسلمون ، في هـذا القرن الاسلامي الجديد ، فيما يتعلق بحركـة الوحـدة الاسلاميـة في نشـاطهم العمـلي الـوحـدوي وبحـركـة الـواقـع السيـاسي في جهادهم من أجل إقامة حكم الاسلام في الحياة . . .

وربمـا كـان للحـديث عن « مفهـوم الحكمـة في القـرآن الكـريم » وعن « المستضعفـين في القـرآن » بعض الصلة بهـذا التصـور . . لأن المسلمـين لا يـزالـون يعيشـون في أجـواء

الاستضعاف في كل مجالات واقعهم السياسي والعسكري والثقافي والاقتصادي ، أمام ضغوط الاستكبار العالمي الذي يعمل بكل جهده وقوته ، من أجل تعطيل حركة النمو والتطور في العالم الاسلامي على أكثر من صعيد ، ومن أجل إبقاء عوامل التخلف في الحياة الاسلامية في أكثر من موقع .

وقد يكون في حركة المجاهدين المسلمين ضد هذا الاستكبار ، بعض ما يوضح ملامح الصورة فيما تمثله الضغوط الاستكبارية على صعيد هذا الواقع ، وفيما تتحرك به التحديات الصلبة في مواجهتها . . من أجل أن تتكامل المسيرة التي تحوّل هذا الاستضعاف إلى مواقع قوّة في أكثر من مجال .

أمّا قضية الحكمة . . فإنها تمثل الخط العملي الذي يحاول أن يزن الأمور بموازينها الحقيقية التي تتوازن فيها المبادىء مع واقعية الحركة . . لئلا تنحرف المسيرة عن المبادىء باسم الواقعية ، أو تبتعد عن الواقع ، نحو المثالية ، باسم المحافظة على المبادىء . . وذلك هو ما نستوحيه من تأكيد القرآن الكريم على الحكمة ، الى جانب الكتاب . . فيما هو الخط المستقيم الذي تتحرك فيه النظرية في مستوى الخط الواقعي للتطبيق . .

* * *

لقد حاولتُ في هذه الكلمات أن أُثير التفكير الاسلامي في أكثر من قضيّة وأن أُحاور الطموحات الاسلامية للتحرك في

مواجهة الاحـداث بقوّة ، وفي التعـامل مـع المتغيرات بـواقعية ، لئلا تتحوّل الحـركة الاسـلامية إلى قفـزاتٍ منفعلةٍ في الفراغ عـلى مستوى التخطيط ، أو على مستوى التنفيذ .

وفي ضــوء هـذا ، قــد نجـد من الضــروريّ للعـاملين أن يدرسوا الهزائم أو الانتصارات في السـاحة ، عـلى أساس التعمق في تحليـل الأسباب والخلفيّـات والنتائـج ، لا على أسـاس إصدار الاحكام الارتجالية في نطاق التبسيط لمـا هو غـير بسيط أو التعقيد لما هو غير معقّد .

وقد يكون من الضـروريّ ـ في هذا المجـال ـ أن نؤكد عـلى الابتعاد عن التفسيرات الغيبيّة كقاعـدةٍ لحركـة الواقـع ، لأن الله لم يركّز الحياة على أسـاس الغيب ، بل خلقهـا على قـاعدة السنن الكونية الـطبيعيّة التي أودعهـا في الكون ، وأراد من الإنسـان أن يكتشفهـا من خـلال فكـره النـظري والتجـريبي ، ليستـطيـع أن يعـرف كيف يتعامـل مع الكـون بطريقـةٍ منظّمـة ، ومع حـركـة الحياة ، بطريقة علميّةٍ واقعيـة ، فيما يمكن لـه ، من خلال ذلـك أن يضيف إلى الحيــاة شيئـاً من فكــره ، وشيئـاً من قــوّتــه . . ليتكـامل الإنسـان مع الكـون ، في عمليّة أخـذٍ وعطاء ، ليعيش مسؤ وليته فيه كما يريد الله منه ذلك .

وقـد لا يعني ذلك استبعـاد الغيب من السـاحـة ، فيـما قـد يفجأ الإنسان من أحـداثٍ وانتصارات . . لأننـا نؤمن بالغيب ، فيما هو معنى الإيمـان ، فيما انـطلقت فيه الإرادة الإلهيـة من خلق

الكـون ، وفيما أودعت فيـه في الجـانب الآخـر الخفي منـه ، من مخلوقاتٍ وأكوان ، وفيـما يستقبله الإنسان من أوضـاع وحوادث ، بعيداً عما هو المألوف في قانون السبّبية ، فيما هي **العلاقة** بين السبب والمسبب ، إنه الإستثناء في حركة الحياة ، وليس القاعدة . .

* * *

إننـا لا نريـد أن نفيض في الحديث كثيـراً ، حول المـواضيع التي قد يحتوي الكتاب بعض ملامحهـا . . ولكننا نـريد أن نؤكـد أن مسؤوليـة دخول المسلمـين في قرنٍ جـديـد ، أن يعملوا عـلى احتواء الزمن لصالح الإسلام ، وعلى تحريك الـطاقات من أجـل خـطةٍ بعيـدةِ المـدى . ليكـون الاسـلام فيهـا فكـر العـالم وعقله وشـريعته ومـواجهة التحـديات بقـوّةٍ لا تبتعد عن حـركـة العلم والعقل ، وبعقل لا ينفصل في تخطيطه عن عملية صنع القوّة .

إننـا محكومـون من خلال الضغـوط الصعبة التي نـواجهها . أن نصنع للإسلام قوّتـه ، على أكـثر من صعيد ، وأن نـوسّع لـه رؤيتـه في أكـثر من أفق ، وأن نحـرّك في المسلمـين ، الـروح الاسـلاميـة التي تجعـل من كـل مسلم ، إسـلامـاً يتحـرك عـلى الأرض ، بحيث لا يجـد في داخله إلاّ الاسـلام ، ولا يلمـح في خط السـير في جميع جـوانب حياتـه ، إلاّ خـطوات الاسـلام . . لنستطيع أن نعيش الـوعد الإلهيّ بـانتصار الاسـلام في الحياة . .

فيما يحمله لنا المستقبل من حركة هذا الـوعد في تـطلعاتنـا الكبيرة الواسعة .

* * *

وفي هـذه الأجواء . . أرجـو لهذه الكلمـات أن تحقّق بعض أهدافها ، لتكون شيئاً يدفع إلى الفكر والتأمّـل والحوار ، ويـدعو إلى الحركة والثورة والواقعية الرساليّة .

إنها كلمات لم تبتعد عن جو الاخلاص في انطلاقـة الفكرة ، وأرجــو أن لا تكـون بعيـدة عن جـوّ الصــدق في لقـائهـا مـع الحقيقة . . وفي انسجامها مع الواقع إننا نريـد من خلالهـا الوعي في الفكر ، ولا نريد منها الاستهلاك في النتائج .

* * *

وأخيـراً . . إنني في الوقت الـذي أرجو الله فيـه أن ينفع بهـا وهي في داخـل هـذا الكتــاب . . أسـأل الله أن يــوفق الأخـوة القـائمين عـلى « مؤسسة الـوفاء » لخـدمة الاسـلام والمسلمـين ، شـاكـراً لهم جهـدهم في إخـراج هــذا الكتـاب بهــذا الإخـراج الجيد .

والله سبحانه ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل

٩ شعبان ١٤٠٥ هـ

محمد حسين فضل الله

دور الحكمة في القرآن الكريم

لقد وردت كلمة الحكمة في القرآن الكريم في أكثر من آية في مواضع متعددة ، فقد جاءت صفة لله ، وعنواناً للوحي المنزل من الله ، وصفة للإنسان ، وأسلوباً للعمل ، واختلف اللغويون والمفسرون في تفسير الكلمة . . ففي لسان العرب . . الحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم . وفي تاج العروس ، العلم بحقائق الأشياء والعمل بمقتضاها ولهذا انقسمت إلى علمية وعملية، ويقال: هي هيئة القوة العقلية العلمية وهذه هي الحكمة الإلهية . وجاء في مجمع البيان في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[1] .

(١) ـ البقرة الآية ١٢٩ .

قيل : هي ها هنا السنة عن قتادة ، وقيل المعرفة بالدين والفقه في التأويل عن مالك بن أنس ، وقيل العلم بالاحكام التي لا يدرك علمها إلا من قِبل الرسل عن ابن زيد وقيل : هي صفة الكتاب كأنه وصفه بأنه كتاب وأنه حكمة وأنه آيات وقيل : الحكمة شيء يجعله الله في القلب ينوره الله به كما ينور البصر فيدرك المبصر ، وقيل : هي مواعظ القرآن وحرامه وحلاله عن مقاتل . . وكلّ حسن . وجاء في موضع آخر منه : الحكيم المدبر الذي يحكم الصنع ويحسن التدبير فعلى هذا يكون من صفات الفعل ويكون بمعنى العلم فيكون من صفات الذات .

الحكمة والكتاب :

ونحن هنا في محاولة لملاحقة هذه الكلمة في عدة آيات قرآنية لنضع أيدينا على المعنى المحدّد لها لعلاقته بالأسلوب العملي لحياتنا ، وبطبيعة الفكرة التي نحملها ونعيشها ، وبملامح الشخصية التي نريد أن نصنع حياتنا على صورتها . ولا بد لنا في هذا المجال من ملاحظة بعض هذه الآيات فنلتقي بالآيات التي تضع الحكمة إلى جانب الكتاب .

١ ـ ﴿ واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ﴾[١] .

---

(١) ـ آل عمران الآية ٨١ .

٢ - ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾[١].

٣ - ﴿ . . فقد أتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ﴾[٢] .

٤ - ﴿ واذ علمتك الكتاب والحكمة ﴾[٣]

٥ - ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾[٤] .

٦ - ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾[٥] .

ما المراد من الكلمة هنا . . هل الحكمة شيء آخر غير الكتاب ؟ . إننا لا نستطيع الجزم بذلك لأننا لم نجد لذلك أثراً في رسالات الأنبياء الذين أنزلت عليهم الكتب فلم يُعرف لموسى (عليه السلام) شيء منزل غير التوراة ، ولم يعرف لعيسىٰ (عليه السلام) غير الإنجيل كما ليس لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) غير القرآن مما يدخل في الوحي والتنزيل الذي أراد الله من الأنبياء أن يعلموه للناس .

وربما نجد في بعض الآيات الإيحاء بأن الحكمة هي من

---

(١) ـ البقرة الآية ٢٣٢ .
(٢) ـ النساء الآية ٥٤ .
(٣) ـ المائدة الآية١١٠ .
(٤) ـ البقرة الآية ١٢٩ .
(٥) ـ البقرة الآية ١٥١ .

بعض ما أوحي إلى الأنبياء في الكتاب وذلك كما في قوله تعالى :

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ﴾(١) .

فقد يظهر منه أن التعاليم المنزلة عليه من الله هي - نفسها - الحكمة التي علمها الله له ، وورد في قوله تعالى :

﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾(٢) .

مشيراً إلى الوصايا الواردة في الآيات التالية :

﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ربكم أعلمُ بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشيطان وكان الشيطان لربه كفوراً وامّا تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيراً بصيرا ﴾(٣) .

---

(١) ـ الزخرف الآية ٦٣ .

(٢) ـ الأسراء الآية ٣٩ .

(٣) ـ الاسراء الآيات ٢٣ ـ ٣٠ .

﴿ ولا تقتلواالنفس التي حرّم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنه كان منصوراً ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾[1] .

إن هذه الآيات تدل ـ بوضوح ـ على أن الحكمة هي بعض الكتاب .

ويبرز أمامنا ـ في هذا المجال ـ سؤال : لماذا هذه المغايرة بينهما ما دام أحدهما منضماً للآخر . .

والجواب ، أن الحكمة ربما كانت هنا وصفاً لبعض المعاني الواردة في الكتاب من خلال مفهومها العام الذي يعبر عن أحكام الأمور واتقانها من ناحية عملية على أساس المعرفة التي تشير إلى الخطوات الموزونة في الطريق المستقيم وبذلك تتحول إلى سلوك عملي يحقق للإنسان ثبات خطواته واستقرارها ، فيما يفعل وفيما يترك ويهيء لها الإنسجام في العلاقات العامة

---

(١) ـ الاسراء الآيات ٣٣ ـ ٣٨ .

والخاصة بحيث تقل حالات الخطأ والاهتزاز وتكثر فيها فرص الامتداد والتركيز وبذلك نفهم كيف يكون مجيء عيسى بالبينات تجسيداً للحكمة لأنها تعطي الإنسان وضوح الرؤية في المنهج والفكر والسلوك ، ونعرف كيف تتمثل الحكمة في هذه الوصايا العملية التي تتحدث عن المسؤولية في العقيدة والعبادة والعلاقات والسلوك باعتبار أنها تساهم في بناء الشخصية الإنسانية على أساس المنهج الواضح السديد .

الحكمة بين الفكر والعمل:

وبذلك تلتقي الحكمة النظرية التي تكفل للإنسان الرؤية الواضحة من خلال الفكر المتزن الهادىء بالحكمة العملية التي تتمثل بالسلوك المستقيم على أساس الوضوح في الخطى والأهداف . . وهذا هو ما عبر عنه صاحب تاج العروس في تحديده للحكمة ، العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها . .

وقد يظهر من بعض الآيات أن الحكمة تعبير عن حالة الوعي الذاتية الكامنة في داخل الإنسان التي تتيح له الرؤية الواضحة للأشياء فتدفعه إلى التصرف السليم والرأي السديد وهذا ما نتمثله في قصة لقمان الذي لم يكن من الأنبياء في أغلب الظن ، بل كان إنساناً سديد الرأي ثاقب النظرة صالح

العمل فيما ينقله لنا القصص الديني . .

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾[1] .

فقد جاء في بعض الأحاديث المأثورة ، أن الحكمة هنا هي الفهم والعقل كما ورد في مجمع البحرين ، وفي تاج العروس أن المراد بها ـ هنا ـ حجة العقل على وفق الشريعة . . وربما كان في اتباع الكلمة بالأمر له بالشكر لله . . إيحاءٌ بأن الشكر لله هو مما يدعو اليه العقل النيِّر الذي يدرك حقائق الأمور . .

وقد يلوح لنا أن ذلك ليس هو معنى الحكمة ، بل المراد بها هو نفس المعنى الذي استوحيناه من الآيات السابقة وهو المضمون الفكري الذي يتحرك في الفكر فيحقق النظرة الصائبة إلى الأمور ويتحرك في الواقع فيتحقق الموقف العملي الصحيح . . ومن الطبيعي أن مثل هذا المضمون يحقق للشخص الأفق الواسع والجو الهادىء الذي يوحي له بالمواجهة الواقعية للأشياء . . وقد يتحول الفكر من خلال التربية الدائبة على النظر إلى الأمور من موقع الدراسة الواعية ، إلى فكر يعطي الحكمة تماماً كما تعطي المعلومات للإنسان قوة جديدة يكتسب من خلالها معلومات جديدة ، وبهذا كانت الثقافة

---

(١) ـ لقمان الآية ١٢ .

العميقة الواسعة هي سبيل الحكماء للنموّ والتعمق من أجل تحويل الشخصية إلى عنصر فاعل ينتج الحكمة على هذه القواعد العامة للتفكير وللحياة .

ولعل وصية لقمان لابنه المذكورة في السورة المعروفة باسمه تعطي الفكرة عن شخصيته الفكرية والروحية التي تتحرك أفكارها وكلماتها في الاتجاه السليم فقد اشتملت على مختلف القضايا المتصلة بالعقيدة والعمل وبناء الشخصية المتكاملة المتماسكة . . وذلك للإيحاء بالخط الفكري والعملي الذي تقتضيه الحكمة عندما تنطلق في خطواتها الفكرية والتوجيهية .

الحكمة طريق الدعوة الى الله :

وقد وردت كلمة الحكمة في معرض الحديث عن الطريقة التي ينبغي للداعية أن يمارسها في دعوته إلى الله وذلك في قوله تعالى :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾[1] .

وقد حاول ـ فيما يبدو من كلامه ـ أن يجعل الحكمة هنا مضموناً للدعوة ومحتوىً لها لا أسلوباً من أساليبها فقد ذكر

---

(١) ـ النحل الآية ١٢٥ .

الشيخ الطوسي في تفسير التبيان أن الحكمة هي : [أن يدعوهم إلى أفعالهم الحسنة التي لها مدخل في استحقاق المدح والثواب عليها لأن القبائح يزجر عنها ولا يدعو إليها والمباح لا يدعو إلى فعله لأنه عبث وإنما يدعو إلى ما هو واجب أو ندب لأنه يستحق عليه المدح والثواب . .][1] .

وفي مجمع البيان للشيخ الطبرسي : [الحكمة القرآن . . وسمي القرآن حكمة لأنه يتضمن الأمر بالحسن والنهي عن القبيح][2].

وفي الكشاف للزمخشري : [الحكمة هي المقالة الصحيحة المحكمة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة] ثم يقول : [ويجوز أن يريد القرآن أي ادعهم إلى الكتاب الذي هو حكمة][3] .

. . ولكن يبدو لنا أنها لا تنسجم مع طبيعة غرض الآية وهدفها الأخير فهي ليست في مجال التحدث عما يلزم على النبي أن يدعو له فيأمر به أو ينهى عنه ، لأن ذلك أمر واضح معلوم للنبي باعتباره نبياً مرسلاً من الله سبحانه برسالة تتضمن أوامر

---

(١) ـ تفسير التبيان ج/٦ ص ٤٤٠ .
(٢) ـ تفسير مجمع البيان ج/٤ ص ١٣٨
(٣) - تفسير الكشاف ج/ ٢/ ٦٤٤ .

الله ونواهيه وتعاليمه المتعلقة بأمر معاش الناس ومعادهم . . أما التفسير بالحجج والأدلة والبراهين فهو غير وارد أيضاً لأنه ليس أمراً جديداً على الدعوة وعلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن أساليب القرآن ترتكز على ذلك ، كما أن طبيعة الدعوة تعتمد عليه لأنها انطلقت ـ مع أدلتها وبراهينها ـ منذ اللحظات الأولىٰ .

فما الذي يراد بها إذاً ؟ .

الذي يبدو لنا ـ من خلال ما قدمناه ـ في مفهوم هذه الكلمة انها تعبيرٌ عن طبيعة أسلوب الدعوة وضرورة اتصافه بالحكمة وسلوكه طريقها . . فكأن الآية محاولة للإرشاد إلى طريقة الدعوة العملية في هداية الناس وإرشادهم وكسب أكبر عددٍ ممكن منهم إلى صف الدين والعقيدة ، وللإشارة إلى أن الحقيقة المجردة العادية ، والواقع البسيط المجرد لا يمكن إلقاؤهما إلى الناس دون مقدمات ورتوش ، ودون ملاحظة للظروف ودراسة لجو العمل ومجالاته .

وعلى ضوء هذا فالمراد بالحكمة ـ فيما نفهمه منها ـ هو السير على الطريقة الواقعية للعمل ونعني بها تلك التي تلاحظ الواقع الخارجي للمجتمع الذي تعيش فيه وتدرس ظروفه العقلية والنفسية والإجتماعية وتضع كل ذلك في حسابها قبل بداية العمل .

وإذا ربطناها بالدعوة فسنجد أنها محاولة لتنبيه الدعاة إلى الله ، إلى أن لا يكون الأسلوب المتبع لديهم واحداً من حيث النوع ، بل لا بد من أن يختلف حسب اختلاف الواقع الذي تعيشه الدعوة ويعيش فيه الدين فإن الدعوة لن تكون عملية إذا حاولت أن تساوي بين الجاهل والمثقف في طبيعة الفكرة التي تُلقى والأسلوب الذي يتبع فإن الأدوات التعبيرية والفكرية التي يملكها كل منهما تختلف عما يملكه الآخر ، وأيضاً فقد يقتضي بعض المواقف الجو الحماسي والإندفاعي الصرف بينما يقتضي البعض الآخر الجو الهادىء المتزن الذي يتيح للفكر أن ينطلق وللروح أن تطمئن وللإنسان أن يفكر بهدوء ، وقد يدفعنا الجو - في بعض الحالات - إلى عرض الفكرة للمخاطب بكامل تفاصيلها ، بينما يدفعنا في حالات أخرى إلى الاكتفاء بعرض الخطوط الرئيسية فقط تاركين للمستقبل تفاصيل وضع النقاط على الحروف .

وقد نجد في تعبير علماء البيان عن البلاغة بأنها مطابقة مقتضى الحال ما يوضح لنا معنى الحكمة ويقربها إلى اذهاننا لأنه يلتقي بها من أقرب الطرق » .

توظيف الحكمة في حياة الانسان :

ومن خلال هذا العرض نستطيع أن نخلص إلى القول أن

الحكمة ليست مجرد معلومات يختزنها الإنسان في فكره تماماً ، كأيّ شيء مما يبني الفكر أو يثيره ، وليست أسلوباً مميزاً في الممارسة العملية للأشياء في المجالات الخاصة والعامة ، أو حالة داخلية تطبع شخصية الإنسان فتجعل منه عنصراً فاعلاً في تدبير الحياة وتنميتها على أساس متين ، بل هي عبارة عن ذلك كله في مزيج تتفاعل فيه المعلومات بالواقع المنفتح على حركة الشخصية في الحياة فتجعل من الفكر عنصراً متجدداً يلاحق الحياة في كل آفاقها وأفكارها وخطواتها ليأخذ منها الرأي السديد والفكرة الصائبة ، والأسلوب العملي الذي يتلاءم مع الذهنية العامة للمجتمع ، ومن خلال ذلك تبرز لنا الشخصية الحكيمة التي تفكر بحساب وتتحرك بحساب وتلجم الانفعال والحماس والفوضى النفسية بلجام من فكر وعقل واتزان .

وهذا هو ما يجب أن نعيه ونعمل له في أساليب التربية وفي خطوات العمل ، فقد لا يكفينا أن يتخرج العلماء الكثيرون من مدارس الفكر والمعرفة بل القضية هي أن تتحول المعلومات المستمدة من الدراسة ومن التجربة إلى حكمة واعية ويتحول العلماء إلى حكماء يعلمون ماذا هناك ، ويعرفون ماذا يريدون وماذا يريد الآخرون ، وكيف يديرون الحياة والمعرفة في الاتجاه الصحيح الذي يربط الناس بالحياة من خلال ارتباطهم بالله . .

مع المستضعفين في القرآن

القوة والضعف في حركة الحياة :

لقد تحدث القرآن الكريم عن المستضعفين من خلال واقع الاضطهاد الذي يمارسه الطغاة والمستكبرون ضد الفئات الضعيفة التي لا تملك من أسباب القوة المادية الوسائل الفعالة للمقاومة ، فتستسلم وتستكين لما يريده هؤلاء من شؤون العقيدة والحياة من دون اعتراض أو مناقشة . . بل القضية كل القضية عندهم فيما يُعرض عليهم ، أن ذلك هو عقيدة السادة الاقوياء فلنعتقدها . . . وأن هذه هي شريعتهم فلنسر عليها وإنها إرادتهم فلننفذها . .

أنها قضية القوة والضعف عندما يتحركان في الحياة من موقع الاستغلال والسيطرة بعيداً عن المبادىء الاساسية التي تحكم السلوك الإنساني فتخطط له طريقته في العلاقات العامة والخاصة ، وفي طبيعة التعامل . . الأمر الذي يجعل من حركة الحياة تعبيراً عن حركة الاقوياء . . أما الضعفاء فإنهم لا يمثلون

إلا الصدى الواهن الضعيف الذي يستمد وحيه وفعاليته من وحي الاقوياء ، ولا ينطلقون إلا من خلال الارادة المسحوقة المقهورة تحت ضغط ارادة الطغاة . . فتتعطل إزاء ذلك كل حيوية الطاقات التي يملكونها ، والفعاليات الكبيرة التي يمكن أن يتحركوا من خلالها في عملية بناء وتفجير .

وقد لا يقتصر الأمر على شعور الضعفاء بالانسحاق والتضاؤل أمام الارادة القوية القاهرة بل هناك القناعة الطاغية التي تعيش في وعي الأقوياء بأن الضعفاء لا يملكون أمر تقرير مصيرهم ، أو اختيار قناعاتهم ، أو التحرك في حياتهم إلا من خلال ما يقررونه أو يختارونه لهم في شؤون الإيمان والحياة والمصير . . ولذلك فهم يؤكدون لهم قداسة المركز الذي يضعون أنفسهم فيه ، ويزرعون في داخلهم الأوهام الكبيرة حول الاسرار العميقة الغامضة التي يملكونها على أساس علاقاتهم بالألهة بالمستوى الذي يجعلهم في موقع الألهة الصغار الذين يجب على الناس تقديم فروض الطاعة العمياء لهم . . وبذلك يتحول انسحاق الضعفاء إلى عبادة ذاتية يشعرون فيها أنهم يمارسون قناعاتهم الروحية ، والتي تمنحهم السعادة في الدنيا والآخرة . . وهذا هو أخطر أنواع الاستغلال ، لأنه يوحي للضعفاء بأنهم لا يخضعون للقويّ من خلال قوته ليعيشوا الشعور بالاستغلال من خلال ذلك . . . بل يعتقدون بأنهم يخضعون للسرّ الإلهي المودع فيه ، مما

يعطّل كل انتفاضة أو تمرّد في داخلهم ، وكل حركة ترمي إلى انقاذهم من هذا الواقع لأنهم يعتبرون ذلك كفراً أو هرطقة أو تحطيماً للقداسات الروحية والعاطفية المرتبطة بالتراث المغموس بالاسرار .

تلك هي بعض ملامح الصورة في البداية فيما نلتقيه من مفاهيم الضعف والقوة من خلال القرآن الكريم فكيف نستطيع أن نستوضح الصورة كاملة ؟ .

هذا هو ما نحاول أن نستعرضه من خلال الآيات القرآنية التي عالجت موضوع الضعفاء والمستضعفين في مواجهة الاقوياء والمستكبرين .

المستضعفون في مواكب الأنبياء :

لقد واجه الانبياء ـ منذ البداية ـ اعتراضات الاقوياء والمترفين والمستكبرين ، على الجماعات الفقيرة الضعيفة « المرذولة » اجتماعياً التي تعتبر القاعدة العريضة للدعوات الرسالية التي تنطلق من الانبياء . . وكانت هذه الاعتراضات تتحرك من موقع الاحتقار لهذه الفئات المستعبدة التي لا تمثل أيّ حجم كبير في المقاييس الاجتماعية للقوة ، مما يمنع الفئات القوية المتقدمة من الانتماء إلى هذه الدعوات لأن ذلك لا يتناسب مع مراكزهم العالية التي تحتفظ لكل اوضاعهم بمستوى متميز عن الآخرين . .

ولم يتجاوب الانبياء مع هذه « الاعتراضات » لأنهم انطلقوا في رسالتهم من أجل تحطيم الفوارق الاجتماعية المصطنعة التي تجعل من المال والنسب والمركز الإجتماعي والقوة المادية أساساً للتقييم لينطلق الناس على مسيرة السواء في مقياس الانسانية المرتكزة على العمل الأفضل الذي تمثله كلمة « التقوى » . . وعلى هذا الأساس فإنهم يلاحظون في هذه الاعتراضات في ذهنية ضيقة مستكبرة تتنافى مع الخط الرسالي الذي يؤمنون به .

ولم يقتصر القرآن الكريم في حديثه عن الموقف النبوي ، على هذا الجانب ، بل دفع القضية في اتجاه أقوى . . فقد كان ردّ الفعل لدى الانبياء تجاه هذه الاعتراضات هو الإيحاء الحاسم للمعترضين بأن الانسجام معهم يفقدهم مواقعهم الرسالية أمام الله ويعطل دورهم ويلغي مهمتهم لأنه يحولهم إلى أشخاص يبحثون عن النجاح من خلال المواقع الإجتماعية ، لا من خلال المواقع الرسالية مما يجعلهم بعيدين عن الله في أوضاع غريبة لا طعم لها ولا لون .

مع نوح عليه السلام :

وهذا هو ما نستوحيه في قصة نوح الذي يمثل الموقف النبوي المتحرك الأول في القصص القرآني في تاريخ النبوات وذلك في قوله تعالى في حديثه عن اعتراضات قومه .

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا

وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾[1] .

وكان الرد الحاسم من نوح فيما حدثنا الله عنه :

﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾[2] .

ونواجه نفس القصة في سورة أخرى :

﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إنْ حسابهم إلّا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلّا نذير مبين ﴾[3] .

ويلاحظ في هذا الحوار أن نوحاً إنطلق من فكرة أساسية حاسمة ، وهي ان اتباع الرسالات لا يعتبرون أتباعاً شخصيين للنبي من خلال صفته الذاتية ليملك أمر إبعادهم ومحاسبتهم على ما ينسب إليهم من خطأ فيما يريده هؤلاء ، بل هم عباد الله الذين ارتبطوا بالله في إيمانهم الحق فهو الذي يتولى حسابهم كما يتولى حساب كل خلقه ، ولهذا فلا مجال لأي حديث حولهم

---

(١) ـ هود (ع) الآية ٢٧ .
(٢) ـ هود (ع) الآية ٢٩ ـ ٣٠ .
(٣) ـ الشعراء الآية ١١١ ـ ١١٥ .

معه لتخضع القضية لاجواء المساومة ، بل ربما يتخذ الموضوع أبعاداً كبيرة على مستوى مصير النبي لدى الله إن استجاب لهذه الاعتراضات وقام بطردهم ، فإن الله سينصر عباده المؤمنين فهل يستطيع هؤلاء المستكبرون أن ينصروه من الله ؟ إنه استفهام لا يبحث عن جواب لدى الكافرين ولكنه ينطلق لينكر عليهم هذا العرض وهذا التصرف اللامسؤول .

مع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) :

ويحدثنا القرآن الكريم عن بعض الأجواء المشابهة لأوضاع قوم نوح في أجواء الدعوة الاسلامية في مسيرة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك من خلال بعض الآيات الكريمة التي توحي بوجود مساومة من هذا القبيل من قِبَل المشركين ضد المؤمنين الضعفاء الذين لا يمثلون حجماً محترماً في حساب المقاييس الاجتماعية للاحترام عند المجتمع المشرك في مكة . . وذلك هو قوله تعالى :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم في شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة

ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾[1] .

ويذكر بعض الرواة في أسباب النزول عدة روايات « منها » ما رواه ابن مسعود قال : « مرّ الملأ من قريش على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعنده خباب بن الأرت وصهيب وبلال وعمار قالوا : « يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك فنحن نكون تبعاً لهم »[2] . وهناك روايات أخرى تختلف فيها الأسماء وتزيد على هذه الرواية : « إن النبي همّ بطرد المؤمنين الضعفاء من حوله مراعاة لخواطر كبار قومه من المتجبرين طمعاً في هدايتهم للإسلام ، ولكن الله أنزل هذه الآية فامتنع النبي مما همّ به »[3] .

وإننا نتحفظ بشدة حول هذا النوع من الروايات التي يحاول رواتها ـ فيما نقدر ـ أن يحافظوا على حرفية النهي الموجه إلى النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فيحاولون أن يفرضوا وجود استعداد من النبي لذلك ليكون النهي ردعاً له عما همّ به . . وليس هذا التحفظ ناشئاً من مخالفة هذه القصص لما نؤمن به من عصمة النبي ، ليرده بعضهم ، بأن النبي معصوم في شؤون التبليغ لا في ممارساته الخاصة ، وليعلق

---

(١) ـ الأنعام الآية ٥٢ ـ ٥٤ .
(٢) ـ مجمع البيان ج/٣ ص ٧٢ القسم الأول سطر ٣ .
(٣) ـ مجمع البيان ج/٣ ص ٧٢ القسم الأول سطر ٩ .

عليه آخرون بأن هذا التصرف ليس محرّماً بل هو مخالف ما هو الأولىٰ والأرجح مما يمكن صدوره من النبي دون أن يخالف طبيعة نبوَّته لا سيما وأن النبي لم يحاول طردهم احتقاراً لهم ، بل طمعاً في إسلام هؤلاء الكبار الذين يمكن أن يربح الاسلام منهم الشيء الكثير في مجال القوة والانفتاح .

إننا لا ننطلق في تحفظنا من هذا الزعم أوْ ذاك ، بل من دراستنا لشخصية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ووعيه المنفتح العميق لخطوات الدعوة ، وفهمه لذهنية المشركين من الأغنياء والمترفين ومحاولاتهم المتكررة لابعاده عن دعوته ، وتفريق اتباعه من حوله بمختلف أساليب الضغط والتعذيب الذي يؤدي إلى الإستشهاد . وغير ذلك مما لا يدع مجالاً لأي تنازل عملي على حساب كرامة المؤمنين الذين واجهوا قومهم بالتحدي الكبير عندما دخلوا الإسلام وآمنوا بالله وتحمَّلوا كل ألوان الإضطهاد والقهر والعذاب في سبيل ذلك .

إننا لا نستطيع التسليم بأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يواجه هذه الدعوة الكافرة المنطلقة من احتقار المؤمنين بهذه السذاجة العملية التي كأنها كانت تنتظر أقلّ مبادرة من الكافرين الأغنياء ليترك المؤمنين خلف ظهره ويتقدم إليهم بكل بساطة . . إن دراستنا لشخصية النبي تسمح لنا أن نجزم بأن هذه الروايات التي لا تبعث على الثقة ، من ناحية ارتباكها الذاتي ـ كانت من صنع خيال القصاصين الذين يريدون أن

يتخيلوا أجواء القرآن كما يفهمونها فيخلقوا لها قصصاً وأحاديث ترضي الفضول ، ولا مانع لديهم من أن تغضب الحقيقة .

أما تفسيرنا لأجواء هذه الآيات بعيداً عن هذه الروايات . . فهو أن القرآن في أكثر آياته يواجه النبي بالخطاب من موقع محاولات الآخرين لطرح بعض الأمور والمشاريع التي لا تتناسب مع خط الدعوة ، فيأتي القرآن ليحدد الخطوط الحاسمة في ذلك كله من خلال النبي ، ليوحي للأمة بخطورة الانحراف عن هذه الخطوط بالمستوى الذي لا يقبل الله صدوره حتى من النبي مع عظمة مقامه ورفعة شأنه .

وفي ضوء هذا نشعر من خلال الآيات أن المشركين قد صدر منهم شيء من هذا القبيل ، وأن المؤمنين أحسوا بالضيق في داخل أنفسهم من ذلك . . فجاء القرآن ليردّ للمؤمنين كرامتهم وليوحي للنبي بالمبادىء العامة التي تحكم مثل هذه العروض لتكون برنامجاً عملياً لكل الدعاة العاملين في سبيل الدعوة إلى الله لئلا يعيشوا حالة الانبهار بالاسماء الضخمة للاشخاص فيحتقروا الضعفاء من المؤمنين طمعاً في جلب هؤلاء إلى صفوفهم ، وليعرف العاملون بأن انتصار الاسلام لن يكون على حساب مفاهيمه الاساسية من تكريم المؤمنين من جهة ، ومن اعتبار القيمة كل القيمة فيما يحمله الإنسان من تقوى واخلاص لله لا فيما يملكه من مال ومركز وقوة .

وقد نستوحي هذا الذي فهمناه من الآيتين الأخيرتين اللتين

تنطلق إحداهما لتؤكد على أن هذا الموقف الذي يمثل اتباع الفقراء للدعوة دون الاغنياء يعتبر اختبارا وابتلاء وفتنة للناس الذين يحكمون على الاشياء من خلال مظاهرها لا من خلال طبيعتها الواقعية ومقاييسها الموضوعية فيقولون في لهجة استهزاء :

﴿ **أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا** ﴾[1] .

ماذا يملك هؤلاء من المال ومن الجاه ومن السطوة ، ومن القوة ، ومن النسب ليكونوا محلاً لرعاية الله ومنّه .. تماماً كما كانوا يقولون وهم يعترضون على ارسال الله للنبي .. ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾[2] لأنهم كانوا لا ينسجمون مع نزول القرآن على انسان فقير لا يملك منزلة اجتماعية ولكن الله يرد هذه الفكرة كما ردها هناك .. فكما قال سبحانه رداً عليهم ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا** ﴾[3] .. قال هنا تنديداً بهذا المنطق ﴿ **أليس الله أعلم بالشاكرين** ﴾[4] .. انه هو الذي يعلم القلوب الطيبة المفتوحة لوحي الله من القلوب المنغلقة عنه ..

---

(١) ـ الأنعام الآية ٥٣ .
(٢) ـ الزخرف الآية ٣١ .
(٣) ـ الزخرف الآية ٣٢ .
(٤) ـ الأنعام الآية ٥٣ .

وتنطلق الأجواء لتطلب من النبيّ أن يمتد في تكريم هؤلاء المؤمنين وغيرهم من المستضعفين ليحييهم وليبشرهم رحمة الله ورضوانه للخاطئين التائبين . . ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم** ﴾[1] . .

ونلتقي بما يقرب من هذه الأجواء في آية أخرى في سورة الكهف . . وذلك في قوله تعالى :

﴿ **وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فَرَطا** ﴾[2] . .

اننا نستوحي منها أنها تريد أن تربط الداعية ـ من خلال شخصية النبي ـ بالانفتاح على المؤمنين في كل مواقفهم بالرغم من فقرهم وبؤسهم وضعفهم . . لأن الوقوف مع هؤلاء والعيش بينهم قد يفرض على النفس جهداً داخلياً وخارجياً لا تتقبله بسهولة . . بينما نجدها تنفتح بكل رغبة على العيش مع المترفين الغافلين الذين يريدون زينة الحياة الدنيا . .

---

(١) ـ الأنعام الآية ٥٤ .

(٢) ـ الكهف الآية ٢٨ . .

وهـذا مـا استـوحـاه الإمـام زين العـابـدين في دعـائـه في الصحيفـة السجادية . . « اللهم حبب إليّ صحبة الفقـراء وأعنّي على صحبتهم بحسن الصبر »[1] . .

عبس وتولى :

وهـذه قـصـة كـثر فيـهـا الـلغط والاعـتـراض حـول عصمـة النبي لمـا تـدل عليـه من احتـقـاره واعـراضـه عن الأعمى الضعيف الفقـير الـذي جـاءه يسعى وهـو يخشى فتلهى عنـه وتشاغـل بينما أقبـل على الغني بكـل قلبـه ووجهـه وتصـدّى له . . في الوقت الـذي كان هـذا الأعمى ممن تنفعه الـذكرى إذا ذُكِّـر وممن يمكن أن يتـزكى ويتـطهـر . . ولكن دراستنـا للقصـة تبعدها عن كل هذه الأجواء التي أثيرت حولها . .

فـالأعمى هـو ابن أم مكتـوم الـذي كـان من الأشخـاص المقربين إلى النبي (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) بالمستـوى الذي كان يدخـل فيه عـلى النبي وهو جـالس بين زوجـاته وكـان النبي يستخلفـه على المـدينة في كثـير من الأوقات التي كـان يغيب فيهـا عنهـا لغزو أو غيـره . . مما يجعـل العلاقـة حميمة صحيحـة تقرب من (وحدة الحال) كما يقولون . . وتفرض الابتعـاد عن كل جـوّ من أجواء الاحتشام الاجتماعي الذي تقتضيـه التقاليـد والعادات

---

(١) ـ الصحيفة السجادية ص ١٦٥ « في المعونة على قضاء الله » سطر ٩ .

وقد جاء هـذا الأعمى . . وهو لا يعـرف طبيعة المهمـة التي كان النبي مشغـولاً بها وقـد يكـون النبي ـ في تلك الحـالـة ـ منـدمجـاً بأجواء الحديث الذي يـأمل من خـلاله أن يحـلّ مشكلة أو يهدي جماعة من الناس . . ففاجـأه الأعمى بالسؤال الـذي أربك الجّـو وضـايقه ، فـما كـان من النبي إلاّ أن عبس عبـوس المضـايقـة لا عبوس الاحتقار كأي إنسان يفاجأ ببعض المضايقات الـطارئة . . فيتقلص وجهـه . . واعرض عنـه انسجامـاً مع وحـدة الحال التي تسمح له بـذلك تمـاماً كـما يعرض الإنسـان عن ولده أو أخيـه أو صديقه إذا كان مشغولاً عنـه بشخص آخر أو بمهمـة صعبة ، من دون أن يؤدي ذلـك إلى شعور مضـاد بالاحتقـار أو غيره . . لأن الـوقت واسع لسؤالـه ولقضيتـه . بينـما لا يتسـع لهـذا الإنسـان الذي يحاوره في غير هذا المجال .

ربمـا كان هـذا هو الجـو الذي كـان يسود القضيـة من خلال تحليلنـا لطبيعـة الشخص صاحب العـلاقة لا سيـما إذا عرفنـا أن العبوس الذي لم يكن خلق النبي بشكـل طبيعي ـ فقد كـان دائم الابتسـام ـ لا يشكل أي عنصـر مؤذٍ لابن مكتـوم لأنـه أعمى لا يلتفت إلى تقلصات الوجه . .

أمـا تفسيرنـا لأجواء السـورة من خلال أسلوب العتـاب المرّ الـذي يطغى عليـه فهو التعبـير والإيحاء للنبي بـأن الجهـد الـذي بذله مع هذا الإنسان الغني المستكبر الـذي لم يأت ليهتـدي ، هو جهد ضائع لأنه بدون فائدة بينما لو بذل أقـلّ منه في جـواب هذا

الأعمى الـذي ليس بينه وبـين العمـل إلا أن يعـرف ويتعلم ويتذكر لكان ذلك جهداً كبيراً منتجاً . .

إن السورة تريـد أن تنبه النبي إلى مـا لم يكن قد عـرفه منـذ البداية من طبيعة هذا الإنسان الذي جـاءه ليبدأ معـه الحوار دون جدوى . .

وبـذلك لا نجـد فيهـا أيّ مسـاس بعـظمـة النبي من جهـة خلقه ورسالته . . وقد نحتاج إلى أن نعرف أن الأسلوب القرآني يعنف ويشتـد إذا كانت القصـة تفرض العنف والشـدة من زاوية الإيحـاء بطبيعـة الموقف ومـا يفـرضـه عـلى المؤمنـين في الجـالات المماثلة التي قد تشبه الموقف بالصورة وإن لم تشبهه بالذات .

خاتمة المطاف . .

وخـلاصـة الفكـرة التي نستـوحيهـا من قصـة المؤمنـين المستضعفين في موكب الأنبيـاء أن الفئات المستضعفـة في المجتمع هي القـاعـدة الصلبـة الكبيـرة للدعـوات الخيّـرة ، وللرسـالات الإلهية لأنها تلتقي بتطلعـاتها ومـطامحها وأمـانيها في الحيـاة فتحس ـ من خلالها ـ بعودة إنسانيتها المقهورة المهـدورة إليها وتـرتفع بهـا إلى القمم الكبيـرة في الوقت الـذي يعمل الآخـرون من الـطغـاة والمستكبرين إلى ابقائها في الحضيض . .

ولأنها لا تعيش التعقيـدات النفسية والـروحيـة والمـاديـة التي

تحجبها عن رؤ ية الحقيقة والإيمان بها مما يجعلها بعيدة عن مواقع التعنت والتعصب الأعمى في الحالات التي ترتفع عنها الضغوط المباشرة التي يمارسها الأقوياء ضدها .

وعلى ضوء هذا فإن المهمة الكبيرة التي تنتظر الدعاة إلى الله ، هي الاهتمام بالعمل في اوساط المستضعفين وذلك بتفجير الطاقات الكبيرة الموجودة في داخلهم ، ومحاولة الانفتاح على آمالهم وآلامهم في صعيد الواقع لإبعادهم عن استغلال تيارات الكفر والضلال لهم ، ومواجهة الحالات الشاذة التي تعيش في أوساطهم بالحكمة والأسلوب الطيب . . والإيحاء لهم بروح الاحترام لإنسانيتهم ولأوضاعهم الخاصة والعامة ، ورفض التمييز الطبقي الإجتماعي الذي يخضع التقييم لعوامل طارئة لا يؤمن فيها الإسلام وليس معنى ذلك هو أن نحترم الأخطاء والعيوب والسلبيات التي يعيشونها بل كل ما هناك أن ننظر إلى ذلك كله بروح الدراسة الواعية التي تعمل على معالجة الأخطاء من موقع اعتبارها حالة إنسانية طبيعية لا ترتبط بالمستوى الإجتماعي بل ترتبط بالحالة الطبيعية للخطأ في الإنسان .

إن علينا أن نستفيد من الأنبياء كيف انطلقوا من مواقع المستضعفين بعيداً عن كل أوضاع المترفين فاستطاعوا أن يمنحوا رسالاتهم قوة دفع عظيمة لا تختنق بمواقع الترف ونزواته بل تحلق مع النور السابح في اجواء الحياة المتفجر من ينابيع الفطرة السليمة للمؤمنين . . .

من هو المستضعف وما هي مسؤوليته أمام الله

من هو المستضعف وما هي مسؤوليته أمام الله

وكيف اختار القرآن هذا المصطلح في معالجة قضية الحالات الضاغطة في حياة الانسان ؟ هذان سؤالان يثوران أمامنا في معالجتنا للنظرة الإسلامية للعلاقات الإنسانية التي تتميز بالقهر والغلبة والسيطرة والاستغلال والاضلال ، بإزاء النظرة غير الاسلامية التي تحاول أن تجعل العامل الطبقي الإقتصادي أساساً للمشكلة في هذه العلاقات ، فنجد أمامنا من خلالها مصطلح « الطبقة العاملة » أو الكادحة في مقابل الطبقة الرأسمالية أو الإقطاعية . . وتنتهي إلى النتيجة المعروفة التي تعتبر كل أنواع الصراع والتطور في أي جانب من جوانب الحياة خاضعاً للصراع الإقتصادي بين الطبقات . . وربما تتنوع الأفكار في هذا الجانب فنواجه عوامل أخرى داخلية وخارجية تضاف إلى هذا العامل أو تنفرد عنه بالتفسير والتحليل . . ونحن هنا في ملاحقة لمصطلح « المستضعف » ، في الآيات

القرآنية وفي النصوص الدينية الأخرى من أجل استيحاء مواقعه في حركة الواقع والتشريع للوقوف مع النظرة الاسلامية المتكاملة للحياة من مصادرها الأصيلة . ليكون التصور الإسلامي مرتكزاً على قاعدة فكرية صلبة .

العوامل المولدة للضعف والقوة:

- في مواجهة السؤال الأول . . لا نجد هناك أيّ أساسٍ لحصر هذه الكلمة في نطاقٍ خاص من التطبيقات المحدودة ، بعد أن كانت شاملة لكل مواطن الضعف التي توحي للذات بالانسحاق والضعف ، أو توحي للآخرين أو تغريهم بممارسة أساليب الاستضعاف ضد الضعفاء ممّا يساعد في وجود الأزمات الإجتماعية والمشاكل الإنسانية في واقع الحياة . . بل أن القضية لا تقتصر على حركة الضعف في صعيد الواقع في نطاق الحاجة المادية المتمثلة بالأشخاص الذين لا يملكون الرصيد الكافي للعيش الكريم لأنهم لا يجدون العمل الذي يكفل لهم ذلك ، أو لأنهم يعملون في ظروف صعبة وأوضاع ضيِّقة لا تمنحهم الإكتفاء الذاتي ، أو لأنهم يخضعون لأساليب الضغط المتعسفة التي يمارس فيها الأغنياء من أصحاب المعامل والمزارع والمصالح الإقتصادية المتنوعة كل وسائل الإستغلال . . ولكنها تتسع لتشمل أيَّ نوع من أنواع القوّة يواجه أيّ نوع من أنواع الضعف كعنصر ضاغط يشلّ إرادة الإنسان أو يلغيها بما يملك من وسائل الضغط التي تمنحها له القوة ، فنجد أمامنا

الأشخـاص الذين يملكـون النسب العريق الـذي يجعل منهم قـوة ضـاغطة عـلى الآخرين الـذين لا يملكـون مثـل هـذا النسب من خـلال طبيعة التقـاليد التي يقـدسها النـاس ـ ونجـد ـ في جـانب آخر ـ قوّة السلاح التي تواجه الضعفاء بـالقهر والغلبـة وغير ذلـك من الأمور التي تعطي فـريقاً من المجتمـع موقعـاً مميزاً من مـواقع القوة التي تسمح لهم باضطهـاد الناس واستضعـافهم على أسـاس القوّة الإجتماعية ، وقد تتصل بالواقع السيـاسي الذي يمنـح قسما من المجتمـع مـوقعـاً من مـواقـع الحكم والسيـطرة في الـداخـل والخارج فيما تمثله القـوى الشريـرة الحاكمـة في الداخـل من ظلم واضطهاد للقوى الخيِّرة الضعيفة أو فيما تمثله القـوى الإستعماريـة في الخـارج من اذلال واستغـلال واستعبـاد للشعـوب الضعيفـة المقهـورة . . ويمتد ذلـك الى الـواقـع الإقتصـادي وغيـره ، وقـد تتداخل هذه النماذج فتملك عـدّة الوان من القـوّة ، وقد تعـطي القوة في بعض الجوانب مجالاً للحصول عـلى قوة جـديدة متفـرعة عنهـا ، فقد تُحقِّقْ قـوّة السلاح لأصحـابها القـوة السياسية ـ وقد تكون القوة الإقتصادية وسيلةً من وسـائل الحصـول على القـوة في السيـاسة وفي السـلاح . وفي كل هـذه الألوان من القـوة نـواجـه ألـواناً أخـرى من الضعف في هذه المجـالات ـ وتبدأ الضغـوط ، وتتحـرك المشكلة في الحياة لتصنـع مـأسـاة الصـراع الـدائم بـين الأقـوياء والضعفـاء ، والمستضعفين والمستكبـرين في قصة العـدل والظلم الأبدية في الحياة .

وتلك هي قصة الإستضعاف في نطاق العوامل الداخلية والخارجية التي تحوّل الإنسان إلى شخصية مسحوقة لا تملك حرية الإرادة ، في حركة القوة والضعف في الحياة . .

المستضعف في العقيدة :

وهناك مجال آخر لهذا المصطلح وهو « الإستضعاف في العقيدة » ونعني به الحالة التي لا يملك الإنسان معها الإنفتاح على الحق من خلال الفكر القويّ المرن أو الوسائل التي تتيح له أن يحصل على المعرفة التفصيلية في وجهات النظر المتنوّعة أو المعرفة الإجمالية التي تثير أمامه احتمالات الفكرة المضادة لما يملكه من فكر وقناعة ، وقد يتمثل هذا النموذج في عدة أسباب :

١ ـ القصور الفكري الذاتي الذي يمنع الإنسان من مواجهة المشاكل الفكرية أو القضايا العقيدية في انفتاح وسعة وعمق ، فإذا حدثت لديه الشبهة ، فإنه لا يستطيع أن يحاكمها أو يحللها بل يقف أمامها حائراً جامداً لأنه لا يملك القوّة الفكرية التي تواجه ذلك كله بالمناقشة والتحليل .

٢ ـ الغفلة المطبقة التي تغلق على الإنسان كل نوافذ الإحتمال المضاد ، لأن الظروف الموضوعية المحيطة به لم تهيء له الانفتاح على وجود فكرة مضادة من خلال ما سمعه أو قرأه

أو فكّـر فيه ومن خـلال ذلك يبقى هـذا الإنسان في دائـرة افكاره المـوروثة من دون أن يكـون له أيّ حـافـز نحـو البحث والتفتيش عن شيء آخــر ويتمثـل هؤلاء بـالأشخـاص الـذين لم تصلهم الدعوة من خلال الوسائل العـادية للحصـول عليها فلم يسمعـوا بالإسلام من أيـة جهةٍ كـانت ، وبأيـة وسيلة كانت ، أو سمعـوا بـه بطريقـة لم تـثر في داخلهم أيّ شعـور بـالحـاجـة الـذاتيـة الى البحث والتفتيش كـما في الحالات التي يُعـرض فيهـا بـاسلوب لا يدع مجالاً للإحتمال ، وقد نجد هذه النماذج في كثـير من مجاهـل العالم التي تعيش في نطاق محدود من المعرفة الدينية .

٣ ـ الوسائل المحدودة للمعـرفة من خـلال الموانـع الخارجيـة الحقيقيـة التي تمنـع الإنسـان من الـوصــول إلى مـواطن البحث والمعـرفة ، أو تمنـع من وصـول أدواتهـا ووسـائلهـا إليـه كنتيجـة لفقدان الحرِّيـة في الحركـة أو في الفكر أو في غـير ذلك ممـا يفسح المجال للمعرفة وقد يجمـع نماذج هـذا النوع قـوله تعـالى : ﴿ **إلاّ المستضعفـين من الرجـال والنساء والـولدان لا يستـطيعون حيلة ولا يهتـدون سبيلاً** ﴾[1] فـإن القاصـر فكـريـا لا يملك الحيلة ولا يهتدي السبيل لأن فكـره محدود لا يتحـرك أبعد من مجـاله الـذي يعيش فيـه فكيف يمكن أن يجد الحـلّ لقضية المعـرفة في ذاتـه . . وهكـذا الغـافـل الـذي قـد يملك الـوسيلة للمعـرفـة من خـلال

(١) ـ النساء الآية ٩٨ .

الأدوات المطروحة لديه ولكنه لا يملك الحالة النفسية التي تدفعه إلى استعمالها في سبيل الوصول لأنه لا يشعر بالحاجة إليها لعدم الشعور بوجود جهل أو مشكلة تحتاج الى حلّ . . أمّا الذي ينفتح على الإحتمالات المضادّة ، ولكنه لا يملك وسائل المعرفة ، فإنه لا يستطيع حيلةً ولا يجد سبيلاً من خلال الحواجز التي تحول بينه وبين ذلك . .

وقد نستفيد هذه الحدود من بعض أحاديث أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) فقد ورد عن الإمام محمد الباقر - فيما رواه زرارة عنه - قال : « سألت أبا جعفر عن المستضعف فقال : « هو الذي لايستطيع حيلةً الى الكفر ولا يهتدي سبيلاً إلى الإيمان ، لا يستطيع أن يؤمن ولا يستطيع أن يكفر ، فهم الصبيان ومن كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان مرفوع عنهم القلم . . »[1] «وفي إشارة حالة القصور الفكري الذاتي التي تصل إلى حدّ السذاجة المطبقة التي تشبه البَلَهْ » .

وجاء في حديث الإمام جعفر الصادق - في حديث أبي بصير عنه - قال : « من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف »[2] .

وورد عن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) - في

---

(١) - البرهان ج/١ ص ٤٠٦ ح/٤ .
(٢) - البرهان ج/١ ص ٤٠٧ ح/٩ .

حديث علي بن سويد عنه ـ قال : « سألته عن الضعفاء فكتب اليّ ، الضعيف من لم ترفع إليه حجة ولم يعرف الإختلاف فإذا عرف الأختلاف فليس بمستضعف »[1] وفي هذا أشارة إلى حالة الغفلة ، والحواجز الذاتية والخارجية المانعة من الوصول إلى المعرفة للحق » .

وقد جاء في حديث الإمام جعفر الصادق الإشارة إلى حالة تطبيقية في واقع الصراع الفكري المذهبي في عصره ، فقد جاء عن سفيان بن السمط البجلي قال : قلت لأبي عبد الله ـ الإمام جعفر الصادق ـ : « ما تقول في المستضعفين ، فقال لي ، شبيها بالفزع ، أفتركتم أحداً يكون مستضعفاً ؟ وأين المستضعفون فوالله لقد مشى بأمركم هذا العواتق إلى العواتق في خدورهن وتحدث به السقايات بطريق المدينة »[2] . ومن المعلوم أن الإمام الصادق كان يتحدث عن قضية الإمامة في نطاق المنطقة التي كان يعيش فيها أو ما كان مشابها لها ، مما يوحي بأن سؤال السائل كان يتحرك في هذا النطاق ، ويستفاد من هذا الحديث أن أية قضيّة تثار في أيّة منطقة من المناطق ، أو أي مجتمع من المجتمعات ، بحيث يثور الجدل حولها ويتحرك الصراع ، تخرج المستضعف وأفراده عن حد الإستضعاف لأنها تهيِّء له الجو الفكري المتحرك الذي يدفع إلى التأمل والبحث والقناعة .

---

(١) ـ اصول الكافي ج/٢ ص ٤٠٦ باب المستضعف ح/١١ .
(٢) ـ معاني الأخبار ص ٢٠١ باب « معنى المستضعف » ح/٦ .

ما هي مسؤولية المستضعف؟ .

إن القرآن يطرح أمامنا نوعين من المستضعفين فيما يحفل به الواقع من مظاهر الإستضعاف .

النوع الأول : الناس الذين يعيشون واقع الضعف في الحياة وفي حركة الإرادة وحريتها استسلاماً للأمر الواقع الذي رأوا فيه مظاهر القوّة وعواملها لدى الآخرين بإزاء عوامل الضعف ومظاهره الموجودة في حياتهم . فلم يحاولوا أن يتمردوا على ذلك كله في عملية تغيير . مع توفر كل الفرص المتاحة لهم فيما يملكونه من وسائل صنع القوّة في الفكر وفي حركة الحياة ، أو فيما يُمكن أن يحصلوا عليه من عناصر القوة المتجددة في مستقبلهم القريب والبعيد ، فكانت حياتهم استرخاءً للراحة والكسل والخوف على زوال ما هم فيه من أمن وشهوات واطماع وامتيازات ذاتية .

النوع الثاني : الناس الذين وجدوا الضعف الذاتي في مقابل القوة الغاشمة التي يملكها الآخرون ، منذ أن فتحوا أعينهم على الحياة . فلم يريدوا لأنفسهم ذلك الواقع ولكن الظروف الموضوعية المحيطة بهم لم تساعدهم على التخلص من ذلك ولم تمكنهم من الحصول على قوّة جديدة، أو متوقّعَة ، فاستسلموا للواقع من موقع الضرورة لا من موقع الإرادة سواءٌ في ذلك واقع الفكر وواقع الحياة .

أمّا حُدود المسؤولية في ظاهرة الإستضعاف ، فإنها تتحرك في نطاق القدرة على التخلص من عوامل الضعف والعجز عنها إنطلاقاً من المبدأ القرآني الذي يضع التشريع في حدود القدرة كما جاء في الآية الكريمة ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها** ﴾(١) والآية الأخرى ﴿ **لا يُكلّف الله نفساً إلاّ ما آتاها** ﴾(٢) ولهذا اعتبر النوع الأول من الناس مسؤولين عن واقع الضعف الذي يعيشون فيه لأنهم استسلموا له من موقع القدرة على صنع الظروف الملائمة التي تخرجهم من ذلك إلى واقع القوَّة والعزَّة والإستقامة وهذا ما يتمثّل في الحوار الذي يدور بين الملائكة وبين هؤلاء المستضعفين الذين ظلموا أنفسهم بالانحراف والمعصية ، فيما حدّثتنا عنه الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿ **إنّ الذين تَوَفّاهُم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيْمَ كُنْتُمْ قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا** ﴾(٣) الى قوله تعالى ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعةً ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما** ﴾(٤) .

---

(١) ـ البقرة الآية ٢٨٦ .
(٢) ـ الطلاق الآية ٧ .
(٣) ـ النساء الآية ٩٧ .
(٤) ـ النساء الآية ١٠٠ .

ويمكننا أن نلاحظ ، في جوّ هذه الآية ، أن الوسائل التي يعتبرها الإسلام رافعةً للعذر في حساب المسؤولية لا تنحصر في الوسائل المباشرة التي يمكن أن تصارع القوة الغاشمة ، بل تشمل الوسائل غير المباشرة التي تصل الى أهدافها في مدة بعيدة ، أو الممارسات السلبية التي يكتفي فيها الإسلام بابتعاد الإنسان عن أجواء الضغط الفكري والعملي ليتنفس في جوّ فكري وعملي يستطيع أن يمارس فيه حرّية الحركة بعيداً عن كل ما يعطّل قوّة الإرادة عن التحرّك في الإتجاه السليم . . الأمر الذي يقتضينا التوقف طويلاً أمام ما يمكن للإنسان أن يصنعه أو يثيره في حياته في أجواء الضغط الخانقة من أجل التخلص منها سواءٌ في ذلك الوسائل التي يستطيع أن يباشرها بجهده الشخصي ، أو الوسائل التي يشترك فيها مع الآخرين على أيِّ صعيد من أصعدة التعاون وفي أيّ نطاق جماعي .

ولا فرق في ذلك بين حالات الإستضعاف على مستوى الأفراد وبين حالات الإستضعاف على مستوى الجماعات والشعوب ، وفي واقع العقيدة وفي حركة الحياة ، ومن خلال ذلك نفهم أنّ مواجهة الشعوب لقوى الظلم والبغي المتمثّلة بالقوى الإستعمارية التي تعمل في نطاق الإستعمار السياسي والإقتصادي ، تعتبر مسؤولية إسلامية في نطاق الوسائل التي تملكها الشعوب ، أو التي تحاول أن تحصل عليها بجهدها الذاتي أو بالتعاون مع شعوب أخرى على الأسس المشتركة التي تخضع

لخطّة مدروسة ذات مراحل متعددة واقعية ، وقد لا يكون من الضروري أن تكون الفئات التي تَتَعاون معَها في مقاومة الإستعمار والطغيان ، متفقة معنا في العقيدة والدين ، بل يكفي أن يكون التعاون من موقع الهدف المرحلي المشترك في النطاق الذي لا يسمح لها بالاستغلال والقفز الى مواقعنا الفكريّة والسياسيّة والإجتماعيّة . . إننا نعتقد أن من الممكن أن يتعاونوا مع غيرهم من أتباع الأديان أو المباديء الأخرى بشرط أن يكون ذلك من مواقع القوّة التي نملكها في الساحة ، لا من مواقع ضعفنا الذاتي لأن التعاون من مواقع الضعف يحوِّل القضية إلى تبعية الضعيف للقوي في استغلالٍ ذكيّ لحاجته للتعاون ، كما حدث للمسلمين الذين تَعاونوا مع الغرب من أجل التخلّص من ظُلم الحكم العُثماني فَتَحوّلت القضية إلى تفجير للأجواء العامة لمصلحة الغرب ضد العثمانيين ، وخلق المجالات الملائمة للاستعمار الغربي للشعوب الإسلامية .

إنّنا نطرح الفكرة من خلال المبدأ ، ولكننا ـ في الوقت نفسه ـ نؤكد على دراسة التفاصيل الدقيقة لحركة الفكرة في الواقع من حيث طبيعة الإمكانات التي نملكها ونوعية القدرات التي يملكها الفرقاء الآخرون ، ومعرفة الظروف السياسية والعسكريّة التي تحيط بالموقف ، وطبيعة المرحلة الزمنية التي تحكم قضية التعاون وغير ذلك من الأمور التي تجعل من هذا التعاون أو ذاك عملا في صالح القضية الإسلامية ، وقد يكون

من الضروري ، في مثل هذا الجّو من الدراسة الشاملة ، أن لا نستسلم للأساليب العاطفية التي قد يلجأ إليها الآخرون من أجل السيطرة على مشاعرنا وعواطفنا فإن الساحة السياسية لا تؤمن ، غالبا ، بالمشاعر الطاهرة كأساس حقيقي للعمل ، بل تعتبرها أسلوباً من اساليب الإستغفال والإستغلال والتأثير على الآخرين في خطّة محكمة للاحتواء والسّيطَرَة . . وهكذا ينبغي لنا أن نعرف كل أساليب الضعف والقوّة المتحرِّكة في الساحة لنعرف كيف نتعامل معها في يَقظة وذَكاء وفَاعليّة .

أمّا النوع الثاني الذي لا يملك القوّة على الحركة في الواقع ، أو الوصول الى الحقيقة في الفكر والإيمان ، فان الله يفسح لَهم المجَال في ذلك لأنهم يفقدون شُروط المسؤولية ، ولكنه يجعل قضيّة العفو عنهم في معرض الرّجاء للإيحاء بأن من المْكن أن يكون الإحساس الذاتي بعَدَم القُدرة ناتجاً من عدم التدقيق في طبيعة الإمكانات التي يملكها الإنسان ، فيخَيَّل إليه أنّه غير قَادر ، لأنّه لم يستوعب كل قدراته وإمكاناته . . وفي ضوء ذلك يريد للإنسان أن يظل بين الخوف والرّجاء ليبقى في موقع المحاسبة والتفتيش والتدقيق في خطوات المسؤولية في الحياة من خلال الدراسة العميقة الشاملة للواقع .

وقفة تأمل أمام نهاية القرن الرابع عشر الهجري

وقفة تأمل أمام نهاية القرن الرابع عشر الهجري

اعتاد الناس أن يقفوا أمام بدايات الفترات الزمنية ونهاياتها ليعيشوا فترة تأمل وحساب .. ليحددوا الخطوات العملية التي تنطلق من البداية ويعرفوا حصيلة الأعمال الكثيرة التي تتجمع نتائجها السلبية والإيجابية في نقطة النهاية .

وقد يكون مثل هذا التقليد مقبولا في حياة الأمم التي تخطط لحاضرها ومستقبلها في نطاق الفترات الزمنية المعينة لتكون الوقفة امام البداية والنهاية وقفة تخطيط للمرحلة وتجميع للنتائج .. أمّا الأمم والشعوب التي تندفع في مسيرتها تبعا لاندفاع الرياح العاصفة من دون أن يكون لها خيار في تحديد اتجاهات الرياح فان القضية لا تعدو أن تكون تسجيلاً للتاريخ في نقطة النهاية واستشرافاً للمستقبل من خلال التمنيات في

نقطة البداية .

فأين نحن في مواقع التاريخ والحركة في حياتنا ونحن نستقبل نهاية القرن الرابع عشر الهجري في هذه السنة في طريقنا الى القرن الخامس عشر الهجري .

ربما لا نستطيع الزعم بأننا نواجه هذه المواقع مواجهة الذين يريدون أن يحصدوا النتائج العملية لما خططوه ولما صنعوه . . لأن حركة الواقع في هذا القرن لم تكن فعلا تصنع النتائج بل كانت انفعالاً بما يصنعه الآخرون . . أو رد فعل للتحديات التي تطلقها الأفكار المضادة والتيارات المعادية ولكن ذلك لا يمنع من أن نقف وقفة تأمل لا تخضع لعقلية التسجيل التاريخي الذي يحاول أن يوحي لنا بالزهو أو الأسف . . بل تخضع للروحية الرسالية التي تقف أمام إيجابيات التاريخ وسلبياته للعبرة والدرس من أجل ان تدفع الإيجابيات التاريخية إلى ايجابيات مستقبلية وتحول السلبيات الماضية الى ايجابيات تحمل للحاضر نقطة التماسك والانطلاق .

انحسار الاسلام السياسي في بداية القرن :

لقد حملت بدايات هذا القرن انحسار الإسلام السياسي عن موقع الحكم في العالم بسقوط الدولة العثمانية . . فلم يعد للإسلام هذا الوهج الممتد في حياة الناس ومشاعرهم وأفكارهم ، وهذه القوة المسيطرة التي تقود المعارك وتتحدى

التحديات . . وبدأت الأفكار المتخلفة عن الدين تأخذ مواقعها في أفكار المسلمين وممارساتهم لتعزل الدين في زاوية ضيقة من زوايا الحياة الفردية والإجتماعية حيث لا مجال إلّا للعبادات وللإحوال الشخصية ولبعض الأخلاقيات المثالية التي تحمل للفرد وللمجتمع الكثير الكثير من السلبيات التي تعزله عن النشاط الإجتماعي والسياسي المتحرك .

وقد لا نملك القول بأن الخلافة العثمانية كانت تمثل الإسلام في طبيعة المضمون الذي ينطوي عليه الحكم وفي نوعية الأفكار التي تتحرك الدولة في نطاقها ، وفي الممارسات العملية التي كانت تحكم الواقع العملي للخليفة وأعوانه ، وللخلافة وخطواتها . . بل ربما استطعنا أن نسجل عليها الكثير الكثير من ألوان الظلم والإستبداد والإنحراف عن الأسس القويمة للحكم الإسلامي ولمفاهيمه الأصيلة . . الأمر الذي جعل الكثيرين من المسلمين يشعرون بأنهم يعيشون تحت وطأة كابوس ثقيل لا يعرفون كيف يتخلصون منه . . مما سهل للتيارات المضادة ان تنفذ الى حياتهم فتوجههم الى الوجهة التي تريد ، وذلك من خلال اثارة الأوضاع الشاذة والمشاعر السلبية ضد الخلافة واصحابها .

بروز التيارات القومية لدى المسلمين:

وبدأت التيارات القومية تفرض نفسها على أفكار المسلمين

ومشـاعرهم بتخـطيط من الإستعمـار الكـافـر الـذي استفـاد من خضوع اساليب الخـلافة العثمـانية لتـوجيه قـومي تركي وانفعـال عنصـري محـدود . . وارتبـطت تلك التيـارات بحـركـة التحــرر والتقدم والتخلص من التاريـخ المظلم الـذي يشد عجلة التـطور الى الوراء . . وبدأت الحواجز النفسية تفرض نفسهـا على الـواقع بعـد أن دخل الإستعمـار إلى حيـاة أمتنـا وسيـطر عليهـا سيـطرة كـاملة في مختلف جـوانب حيـاتهـا . . ثم ضـاقت الحـواجـز من جـديد في الـدعوة إلى الإقليميـة التي تجعـل لكـل بلد شخصيتـه الإقليميـة بدلا من الشخصيـة الإسلاميـة والقوميـة وهكـذا رأينـا هـذا القـرن يتحـرك في مـواقعـه السيـاسيــة انـطلاقــاً من هـذه الشخصيـات الجـديـدة المصـطنعــة حتى عـاد الخــروج منهـا الى شخصيـة أكثر انفتـاحاً واصـالة يشبـه الخـروج عـلى المقـدسـات ويوحي بالخيانة للأمة .

الانحراف في المواقع الفكرية والعلمية

وتطور الإنحراف من المواقع السيـاسية التي تعيش في داخـل الشخصيـة من جوانبهـا النفسية الـروحيـة الى المـواقـع الفكـريـة والحياتية العـامة فـانطلقت الـدعوات التي تؤكـد للأمـة أن سبب التخلف الحضـاري الذي تعيش فيـه يعـود الى انتمـائهـا الـديني الاسلامي واعتبارها الإسلام أسـاساً للفكـر وللعمل ممـا يدعـوها إلى الإنـطلاق بعيداً عن حـركـة العلم والحضـارة في الـواقـع لأن

الصفة الدينية للإسلام تربطه بالجانب الغيبي في الحياة وتوقعه في قبضة الخرافة كنتيجة طبيعية لابتعاده عن التجربة الواقعية كأساس للقناعات الفكرية الحاسمة .

مساهمة الجامعات العلمية في هذا الإنحراف:

وكان للجامعات العلمية التي تأسست على قواعد غربية أثرها الكبير في تشويه الصورة الإسلامية لدى الأجيال الطالعة وتأكيد الصورة الجديدة التي تعتبر الحضارة الأوروبية المنفذ الوحيد للدخول إلى ساحة المدنية والتطور . . فكان من نتائج ذلك ان تحول الإنسان المسلم إلى صورة مشوهة للحضارة الأوروبية سواء في الفكر الذي يعيشه أو في الأساليب العملية للحياة وطريقة العيش وبدأ الإرهاب الفكري ضد الإسلام يتخذ.طابع التعصب المضاد الذي ينفذه الجيل الجديد من الساسة والمثقفين الذين صنعتهم أدوات هذه الحضارة ليكونوا القاعدة الأساسية للحكم وللتشريع وللحركة العملية في صعيد الواقع الإسلامي .

الازدواجية الفكرية:

وبدأت الإزدواجية تفرض نفسها على حركة الواقع في الممارسات الفكرية والعملية حيث تقارنت في وعي الإنسان

الأفكار الإسلامية والغربية في مزيج عجيب لا تعرف فيه صورة الإسلام الأصيلة كما لا تبصر فيه القاعدة الفكرية للتفكير الغربي . . وامتزجت المواقف العملية في خطوات انساننا بين مواقف تستمد معناها من هذا ومواقف تتحرك في مضمونها من ذاك مما أعطى الشخصية ملامح متناقضة شاركت في ارباك الفكر والممارسة . .

بروز الاتجاهات الاسلامية الجديدة:

وبرزت في قلب هذا الواقع الإتجاهات الإسلامية الجديدة التي تحاول أن تدفع الإنسان من جديد إلى أن يبدأ الإنطلاقة الإسلامية من موقع الفكرة التي تعتبر الإسلام قاعدة ونظاما للحياة واختلفت وجهات النظر في هذا الخط الجديد بين اسلوب يتخذ النهج التنظيمي الحزبي أساسا لعمله وبين أسلوب يعتمد النهج الشعبي المتحرك في خطوات القيادة الدينية العامة . .

وما زالت القضية تتفاعل في التجارب المتنوعة التي يخوضها العاملون للإسلام في أكثر من صعيد . . وما زالت الساحة الإسلامية تنتظر المزيد من التجارب وتحفل بالكثير من الأخطاء والحساسيات التي تثير المشاعر من جهة وتدفع إلى الإختناق في آفاق ضيقة من جهة أخرى مما يفرز كثيرا من المشاكل والتناقضات والإرتباكات والخلافات التي تتحول الى مواقف

عملية متباينة .

التأمل ثم العمل على التغيير:

والآن ماذا هناك أمام نهاية هذا القرن في إطار حركة العمل الإسلامي الصاعدة وكيف نواجه المشكلة التي تتحدى المسيرة .

ربما يكون من الإخلاص للإسلام أن يقف العاملون للإسلام وقفة تأمل وحساب ليتدارسوا فيما بينهم الظروف الموضوعية التي تحيط بالإسلام والمسلمين فيما تمثله من خطورة على المصير على جميع الأصعدة والإتجاهات لينتهي بهم التفكير الى وعي المرحلة التي يمر بها العمل بعيداً عن المحاور التي تتحرك حول ذات معينة أو مؤسسة معينة مما أدى الى أن يتحول الإخلاص الى الذات أو المؤسسة بدلاً من الإخلاص للفكرة وتتجه المسيرة إلى ما يشبه عبادة الشخص أو المؤسسة في أسلوب جديد من أساليب الصنمية المعاصرة .

ربما يكون من الإخلاص للإسلام أن يفكروا في هذا الإتجاه ليفحصوا خلفياتهم الفكرية التي تحكم خطواتهم العملية ليعرفوا هل أن الإسلام هو الذي يثير خطواتهم ويدفعها إلى الأمام أو أن المصالح الذاتية هي التي تحكم مشاريعهم وأعمالهم . . لأن الإندفاع في السير بدون وقفات هادئة أمام النفس قد يوحي للإنسان بأن حوافزه للعمل رسالية بينما تكون

الحقيقة أنها تنطلق من عناصر شخصية على ضوء ما جاءت به الآية الكريمة في قوله تعالى :

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾[1] .

ونحسب أن مثل هذا الإتجاه في فحص خلفيات العمل الذاتية يتصل اتصالاً وثيقاً بسلامة الخط العملي وصحة المسيرة لأن الدوافع الشخصية قد تشكل عاملاً سلبيا على إمتداد الرسالة في الطريق الطويل إنطلاقاً من الحقيقة الإسلامية التي تربط عملية التغيير بالداخل باعتبار أن الصورة الخارجية تمثل التعبير الحي للصورة الداخلية وهذا ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[2] .

وما جاء به الحديث الشريف : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى »[3] .

المذهبية والتقسيم :

ولا نريد في هذا المجال أن نحصر القضية في الأعمال

---

(١) ـ الكهف الآية ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) ـ الرعد الآية ١١ .

(٣) ـ الوسائل ج/١ ص ٣٥ باب ٥ من أبواب مقدمات العبادة ح/١٠ .

الإسلامية التي تتحرك في نطاق مذهبي إسلامي معين من المذاهب الإسلامية بل نريد أن تتحرك الإنطلاقة في نطاق المذهبيات المتعددة التي تنطلق من فكر الإسلام وشريعته فقد نلاحظ أن وحدة العمل الإسلامي في نطاق تعدد المذاهب لم تزل تراوح مكانها من خلال العوامل الداخلية النفسية والفكرية التي تترك تأثيراتها على طبيعة العلاقات فهناك حالة من الخوف المتبادل الذي تشعر به كافة الأطراف أن هناك خلفيات باطنية أو ظاهرية تختفي وراء قناع الدعوة إلى الوحدة في الشعارات المطروحة مما يدعو كل واحد الى مزيد من الإحتراس والحذر واليقظة وعدم الإندفاع لئلا يقع في الحفرة التي قد يحفرها الآخرون من الطرف الآخر ، الأمر الذي يؤدي الى أن تأخذ العلاقات حالة من الجمود والإنقباض والإهتزاز وأن تتحول المواقف إلى أساليب متنوعة تخضع لروح المجاملة والتسويات الخاصة . .

وقد نجد في الساحة الإسلامية ـ هذه ـ أن المواقف المذهبية اتخذت طابعاً معيناً شبيهاً بالطابع الرسمي الذي يأخذ صيغته من خلال قرار سياسي أو إداري بالمستوى الذي لا يسمح بتجاوزه أو بالتفكير في ذلك في الحالات التي تستدعي الخروج عليه وقد امتد هذا النوع من المواقف الى أن عاش في أجواء من القداسة الروحية التي تجعل القضية متصلة بالحقائق البديهية التي لا تقبل المناقشة والجدال . .

وجاءت السياسة الإستعمارية الكافرة والألاعيب السياسية المنحرفة الضالة لتوظف هذا الواقع الذي تحول إلى نوع من أنواع الفرز البشري الذي يمثل سمة معينة من السمات التي تطبع فئات المجتمع وتميز بعضا منها عن البعض الآخر فانطلقت من خلالها « الطائفية السياسية » التي أخذت من اختلاف الفهم المذهبي للإسلام اساساً للتقسيم الإجتماعي . . ثم حبست الفكر المذهبي في قمقم سياسي مؤلف من المصالح والأطماع الشخصية والعائلية والسياسية ومنعته من أن يتنفس الهواء من جديد وإحاطته بأسلاك شائكة من القداسة والغيبوبة الصوفية الغارقة في أجواء كثيفة من الضباب وبدأنا نتحرك من موقع الطائفية السياسية التي تجعل من كل طائفة دولة في إطار الدولة في مصالحها وتطلعاتها ومواقفها السياسية والإجتماعية والإقتصادية . . ونصبت الحواجز في الطريق . . وما زالت الحواجز تنتصب عالية أمام العاملين .

فكيف نواجه الموقف . . أو بالأحرى كيف نفهم القضية من الموقع الإسلامي المتقدم لحركة الحياة الرسالية في ظلال الإسلام .

الطائفية أو المذهبية في الواقع الإسلامي

الطائفية أو المذهبية في الواقع الإسلامي

نحن هنا في محاولة جادة للدخول في تحليل تفصيلي للموضوع في العمق ، بعيداً عن النظرة السطحية السريعة . . فنلاحظ في البداية أن هناك عناصر متعددة للتجميد الأعمى للحركة الفكرية المنفتحة في ذلك .

١ -التاريخ المشبع بالدم:

التاريخ الذي اصطبغت فيه المواقف المتضادة بلون الدم من خلال الإضطهاد المتبادل في موقف كل فريق من الآخر في حالات تسلّمه الحكم ، حيث تتحرك النوازع الذاتية والسياسية لتأخذ لنفسها صفة دينية مقدسة . . وبذلك يأخذ التاريخ المشبع بجوّ المأساة إطاراً يرتبط بالمذهب بعيداً عن كل الظروف الموضوعية المؤثرة في ذلك . مما يعطي ارتباط المأساة بالمذهب المضادّ فينعكس بالتالي على طبيعة الحاضر في نظرته إلى الماضي ، ويبعد القضية عن أن تأخذ جانب الفكر لترتبط

بالجانب العاطفي للموقف .

٢ ـ النظرة المقدسة للأشخاص:

النظرة المقدّسة للأشخاص التاريخيين الذين يرتبط بهم هذا الإتجاه أو ذاك ، بعيداً عن الأسس الواقعية للقداسة ، مما يجعل للأشخاص دوراً حاسماً في تأكيد الإنتماء بحيث تنقلب المعادلة إلى شكل معكوس ، ففي الوقت الذي تكون المعادلة الطبيعية أن ينطلق الإنتماء الى الشخص من خلال الانتماء الى الفكر نجد الواقع المطروح أن الإرتباط بالشخص هو الذي يطرح الإنتماء الى الفكر حتى تحولّت القضية إلى تغليب قداسة الشخص على قداسة الفكرة ، فقد لا يكون هناك أيّ مانع لدينا في أن تنحرف الفكرة ، عن الخط الطبيعي العام للرسالة إذا كان ذلك نافعاً لعظمة الشخص ومجده لأنه قد قام ببعض الأعمال التي تعتبر منحرفة عن الخطّ ، مما يوجب أن نصحح فهمنا للخط من خلال الشخص الذي قد لا يملك عصمة حتى في نظر اتباعه ، وبذلك تتحوّل الجماعات الى أتباع للأشخاص بدلاً من أن يكونوا أتباعاً للرسالة الإسلامية .

٣ ـ المنطق الجدلي:

المنطق الجدلي الذي لا يتحرك في تحليله للأمور من خلال منطق الواقع بل يحاول أن يواجهها من منطق التفلسف

الذاتي الذي يضع القضية في نطاق الإستحالة والإمكان ، بدلاً من نطاق البعد عن طبيعة الأشياء والقرب منها ، وقد ساهم هذا في إبعاد التصور الصحيح للقضايا الإسلامية المثارة في صعيد الحوار سواءً منها القضايا المتعلقة بالأشخاص أو المتعلقة بالمواقف والأعمال .

٤ ـ الذهنية التبريرة :

الذهنية التبريرة التي تتخذ لنفسها موقفاً محدّداً قاطعاً قبل الدخول في عملية المناقشة والحوار ، فتتجه إلى انتقاء القضايا التي تدعم الموقف ولو كان ذلك على حساب ظواهر الألفاظ والأشياء بارتكاب التأويلات البعيدة التي لا تنسجم مع طبيعة اللفظ والموقف ، أما القضايا التي تدعم المواقف المضادة ، فإنها قد تُطرح بلا سبب ، أو تخضع طرحها لأسباب غير معقولةٍ أو مقنعةٍ ، وقد ساهمت هذه الذهنية في التركيز على الأساليب الإستدلالية التي تعتمد على النقض والتأويل مما يجعل من الحوار عملية قفزٍ من موقع الى موقع بطريقة إثارة الفعل لرد الفعل من دون الوصول الى قاعدة واحدة للتصور المشترك ، فيؤدي ذلك ـ بالتالي ـ الى الدخول في مهاترات فكرية أو كلامية .

٥ ـ التعصب الأعمى:

التعصب الأعمى الذي يمنع الانسان من الانفتاح على مواجهة الفكرة المضادة بعدالةٍ وموضوعية ويجعله في موقع الإصرار على أن الصواب معه بينما يكون الخطأ في موقف خصمه على طول الخط ـ كما يقولون ـ وربما ينتهي به الأمر الى إغفال الموضوع بالكلية والهروب من عمليات الإثارة الذاتية له ، فيبقى القديم على قدمه في ذلك الموضوع من دون أن نلاحقه بالجديد الجديد الذي يقلب المعادلة الى اتجاه آخر لتظل الأمور كالحلقة المفرغة التي لا يُدرى أين طرفاها ، ويبقى الحوار والجدل جهداً ضائعاً لا غناء فيه ولا فائدة ما دام كل واحد مصراً على أن لا يتزحزح عن موقفه .

٦ ـ الأكاذيب والإفتراءات:

الأكاذيب والإفتراءات التي يلصقها هذا الفريق أو ذاك بالفريق الآخر فيتلقفها من دون محاكمة أو تحقيق حول إثبات صحة هذه الأكاذيب أو عدم صحتها بالأمر الذي يحاول فيه أن يسجل على الفريق الآخر أشياء لا يقولها من دون أن يفسح له المجال بل ربما يغفل الأبحاث والردود التي يراد من خلالها إبطال بعض الأفكار أو تصحيح بعض الإشتباهات والإلتباسات

فلا يلقي لها الآخرون بالا ، بل يتجاوزونها لئلا تقف عقبةً في طريق التنفيس عن العقدة الطائفية الكامنة في النفس بطريقة شعورية أو لا شعورية ، وفي ضوء ذلك نجد أن الفريقين قد يعتمدان على بعض النصوص الشرعية أو الذاتية التي قد لا يعتبرها أي منهما وثيقةً إسلامية تثبت أمام النقد ولكنه ذكرها في معرض التأييد العابر للفكرة من دون تركيز ، فتكون وثيقة ضده ، وإن لم يعتبرها لذلك ولعل من بين أوضح الأمثلة على ذلك قصة « عبد الله بن سبأ » التي اعتبرها الكثيرون من الباحثين الإسلاميين أساساً لفكرة « التشيّع » وارتأوا أن هذا الرجل هو الذي قاد الفتن الكبيرة التي عاشت في بدايات حياة المسلمين وقسمتهم شيعاً وأحزاباً ، وانطلقت أبحاثهم لتؤكد أن اليهودية دخلت في التشيع من خلاله باعتبار أنه يهوديّ ، وقد ظهرت أخيراً بعض التأملات الفكرية التي اثارت جوّاً من التساؤل الفكري حول طبيعة هذه الشخصية هل هي حقيقة أو أسطورة مختلفة وذلك من خلال ما أثاره الدكتور طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى » حيث تساءل عن إمكانية التأثير في حياة المسلمين من شخصية مغمورة لا قيمة لها في حساب الأشخاص والأحداث ، وقد تحوّل هذا التساؤل إلى دراسة علمية واسعة تثبت أن الرجل لا يمثّل إلا أسطورة من أساطير التاريخ الموضوع لحساب الإختلافات الإسلامية وهي الدراسة التي أصدرها العلامة السيد مرتضى العسكري ، ونحن لا نريد في

هـذه الكلمة أن نقف لنعـطي رأينـا في قيمـة هـذه الـدراسـة من الـوجهة العلميـة فلذلك مجـال آخـر وإن كنـا لا نُغفـل إعجـابنـا الكبير بالجهـد والتحقيق الذين يتمثـلان فيها ، بـل كل مـا نريـد أن نحاوله هـو الإشارة إلى أن البحث العلمي يفـرض أن توضـع هذه الدراسة موضع التقدير والإهتمام عنـدما يـريد البـاحثون أن يـدرسـوا التـأثـير السلبي لعبــد الله بن سبـأ في حيــاة الإسـلام والمسلمين ، لأن أيّة دراسة جديـدة في مثل هـذا الموضـوع الكبير ينبغي أن تثير قدراً من الإهتمام الذي يـدفع إلى التـأمل والبحث ولا أقــلَّ مـن الشــك المـنهجي العـميـق ولكـننـا نــلاحظ ان الكثيـرين ممن عالجـوا هذه المسـألة بعـد صدور هـذه الدراسـة لا يزالون يثيرون القضية ويـدرسونها عـلى الطريقة السـابقة من دون اعتبار للنقد الجديد لهـا ليتوقفـوا عندهـا قليلاً كـما تفرضـه أمانـة البحث العلمي المنهجي .

٧ ـ المفاهيم الخاطئة :

المـفــاهيـم الخــاطئــة التي يحـملهــا بـعض المسـلمن عـن المصـطلحات القـرآنية الإسـلامية كمصـطلح الكفر و « الشـرك » فقد رأينا أنّ هنـاك اتجاهـات مذهبيـة فكريـة تعطي صفـة الشرك لبعض الممـارسات العمليـة التي يقـوم بهـا كثـير من المسلمـين في تقـديس الأوليـاء وفي زيـارة قبـورهم . كـما أن هنـاك إتجـاهـات اخـرى تعطي صفـة الكفـر لإنكـار بعض القضـايـا التي تتصـل

بالمذهب ولا ترتبط بالعقيدة الأساسية ، وبهذا اندفعت القضية لتعزل المسلمين عن صفة الإسلام كنتيجة لهذا الإهتزاز في المفاهيم وقد يكون من المثير ، أن نجد الأبحاث المتنوعة تنطلق لتعالج هذه المصطلحات من وجهة نظر المسلمين الذين يتعرضون لمثل هذا الاتهام من هذا الفريق أو ذاك . لتضع الحدود الإسلامية لهذه المصطلحات ، فتعتبر أن تلك الممارسات لا تمثل خروجاً عن الخط ولو سلمنا ـ كما يقول القدماء ـ فلا تمثل إلّا انحرافاً عملياً لا يرتبط بالعقيدة الأصلية ، أما موضع الإثارة في هذا ، فهو الإغفال المطلق لكل الوجهات المضادة فلا بحث ولا من يبحثون ، ولا مناقشة ولا من يناقشون بل هو الإستمرار في الدعاية والإعلام بعيداً عن حركة الحقيقة في مجال الفكر والدراسة ، مما يوحي بأن القضية قد لا تكون استغراقاً في الخطأ ، بل ربما كانت إغراقاً في الإتهام الذي لا يستند إلى حجة أو برهان .

٨ ـ الإستغلال السياسي المنحرف:

الاستغلال السياسي المنحرف من قبل إنـلاتجاهات السياسية الكافرة والضالة في داخل حياة المسلمين وخارجها ، فقد اعتبرت الإختلافات المذهبية لدى المسلمين أداةً من أدوات الإستغلال السياسي لتنفيذ المخططات التقسيمية للواقع الإسلامي ولتعميق الفواصل التي تفصل المسلمين عن

بعضهم . وللتأكيد على طبيعة الشخصية الفرعية بعيداً عن الشخصية الأصلية حيث تتقدم الأولى وتتأخر الثانية ، في حساب الفكر والعاطفة والممارسة والعلاقات ، ولعل من البديهي أن يقف هؤلاء المستغلين ضد كل دعوة للحوار الهادىء ، أو للتفكير العقلاني ، أو للتقارب بين الأفكار ، وذلك بالأساليب السياسية الغوغائية التي تخلق في كل مرحلة من مراحل أجواء الإثارة التي تشارك في التعبئة النفسية الجديدة للحقد والعداوة والخصام مما يساهم في إبعاد الأجواء الهادئة ، والكلمات العاقلة عن الميدان الداخلي والخارجي للإنسان المسلم ، وقد رأينا ملامح هذا الإستغلال في الهجمة الإستعمارية الأخيرة على الإسلام والمسلمين لمواجهة الثورة الإسلامية الجديدة في إيران . والتململ الإسلامي الذي صنعته هذه الثورة في كل موقع من مواقع المسلمين في العالم حيث أصبح الإستعمار يلوّح بالخطر الإسلامي ذي النزعة الإستقلالية الأصيلة التي لا تختبيء خلف الشعارات المثيرة التي لا تحمل أيّ أصالة ، فلم يعد « الخطر الشيوعي » لدى المعسكر الغربي هو الخطر ، ولم يعد « الخطر الإمبريالي الرأسمالي » لدى المعسكر الشرقي هو الخطر بل الخطر كل الخطر في النزعة الإسلامية الجديدة التي بدأت تفرض نفسها على التفكير الإستقلالي في العالم . . وبدأ الإستعمار من خلال أجهزته وعملائه يعمل جاهداً من أجل البحث عن منفذ من داخله لأضعاف هذا

الإتجاه وبدأت الإثارة الطائفية تفعل فعلها في هذا المجال .

هذه هي أهم العناصر التي شاركت في تجميد الحركة الفكرية الإسلامية التي تتحرك في اتجاه السير في طريق التقارب والتفاهم في الماضي ، وقد بدأت اليقظة الجديدة تفتح لنفسها مسارب من التفكير والتحرك من أجل الإقتراب من هذا الهدف ولكننا ـ في انتظار الوصول الى ذلك الهدف ـ نريد أن نقرر أن هذه العوامل قد ساهمت مساهمة فعالة في الوصول إلى تكوين الشخصية الطائفية التي لا تسمح لنفسها بأي قدر من التفكير الجاد في الإتجاه المضاد ، ولا تحاول أن تطلق أفكارها ومشاعرها لتنطلق في الهواء الطلق الذي تتنفس فيه بحرية ونقاء بل نعمل على أن تبقى في الإطار الضيق الذي تتجمد فيه الشخصية الإسلامية فكراً وعاطفة وممارسة مما يجعلها تخشى وترتاب من أيّ تحرك إيجابي في إتجاه الوحدة والإتحاد أو الوفاق والإتفاق . . وبالتالي يجعلها تعطي قيادها للكفر والكافرين والإستعمار والمستعمرين لتستمر اللعبة الإستعمارية الكافرة الضالة تفرض نفسها على الواقع الإسلامي الجديد كما فرضت نفسها على الواقع الإسلامي القديم . وتخلق الكثير من الظروف القلقة التي تتعب العاملين وترهق خطاهم وتبعثر جهودهم المخلصة نحو الحل الإسلامي الأمثل للمشكلة في سبيل الغد الإسلامي الأفضل .

المذهبية الفكرية لا المذهبية الطائفية

المذهبية الفكرية لا المذهبية الطائفية

وقفة واقعية لا مثالية :

قـد يكون من الخير للعـاملين في سبيـل الإسـلام أن يقفـوا أمـام الخلافـات الإسلاميـة وقفةً واقعيـة لا مثاليّـة ، لأن التحرك الـذي يعتمد عـلى المثاليـات سوف يغـرق في المتـاهـات النـظريـة الخيـاليّة، ويـدفع المشكلة الى مـزيـد من التعقيـد والضيـاع . . . وفي هذا الإتجاه نشعـر بأن فكـرة البحث عن إسلام بـلا مذاهب هي فكـرة غير واقعيـة في المدى القـريب ، لأن الركـائز الفكـرية التي تستنـد إليها المـذاهب الإسلاميـة المعـاصـرة لا تـزال تخضـع لتاريخٍ طـويل من الجـدل والنقاش في مصـادر الفكر ومـوارده ، وتلتقي بـذهنياتٍ معيّنـة محصورة ضمن حـدود خـاصّـة . . حتى عادت تشبه المسلّمـات البديهيـة التي يمثل الخـروج عليها خـروجاً عن أصـل الفكـرة ، ولنضـرب مَثَـلاً عـلى ذلـك من دراستنـا للطريقة العملية التي نستنبط بها حكماً شـرعياً أو مفهـوماً إسـلامياً فماذا نجد ؟ أننـا نجد القـرآن كتاب الله الـذي لا يأتيـه الباطـل من بـين يـديـه ولا من خلفـه ، وسنـة نبيـه الـذي لا ينـطق عن

الهـوى إن هـو إلاّ وحيٌ يُوحى ، ولكـنَّ القـرآن يخضـع للإجتهادات المختلفة في تفسيره ، وفي تطبيقه ، أمّا السنة فإنها ظنيـة السند والـدلالة غـالبـاً ، مما يفسـح المجـال للحـديث عن صحة السند وضعفه ، فقد تكون سلسلة الرواة غير موثـوقة عنـد البعض ، وقـد تكـون مـوثـوقـة عنـد بعض آخـر . وقـد يفهم البعض من ظـاهر الحـديث شيئاً ويفهم منـه آخرون شيئـاً آخر ، وبـذلك تختلف المـواقف من الفكرة تبعـاً لاختـلاف الإجتهـاد في مصـادرها ، فيؤدي ذلـك إلى إعتبارهـا حقيقة : إسـلاميـة عنـد البعض ، وبعيـدة عن الإسـلام عنـد البعض الآخـر ، فكيف يمكن أن تلتقي المـواقف أو تتوحّـد . . . ومن هنا كـان اختـلاف المـذاهب في القضايـا المتصلة بـالعقيـدة والتشـريـع . . فلم تكن القضيـة مجرّد ذاتيـات تفـرض نفسهـا عـلى الفكـر ، أو خلفيّـات تتحرك لتحدّد المـواقف . . بل هي في أغلب الحـالات إجتهادات تتنـوّع وتتصـادم فتثقـل السـاحـة بـالأفكـار المختلفـة والمفـاهيم المتنوّعة . . فكيف نواجه الموقف في مواجهتنا للمشكلة .

المطلوب حوار فكري يحرك الجميع نحو الحقيقة

ربما يكون من الأفضـل لنا أن نعترف بالـواقع الـذي فرض نفسـه على السـاحة الإسـلامية في بـداية الـطريق ، ونعمـل عـلى تخفيف سلبيـاته كخطوةٍ أولىٰ في الطريق الـطويـل ، وذلـك بـأن نـواجه الإختـلاف المذهبي بصفتـه اختلافـاً في وجهات النـظر في

فهم الإسلام على الأسس الإجتهادية المطروحة التي قد يلتقي عليها الفرقاء وقد يختلفون . . وفي هذا الجوّ تبقى القضايا في حجمها الطبيعي الذي يتمثل في اعتبارها موقفاً غير حاسم في فهم الإسلام لأنه لم يصل الى حدّ القطع واليقين ، الأمر الذي يفسح المجال للتفكير في إمكانية وجود بعض الثغرات الفكرية في مصادر الإجتهاد وموارده ولو في بعض المقدمات ، أو النتائج في كثير من الأمور مما يؤدي إلى اللقاء في بعض ما اختلفنا فيه . . وهكذا حتى نستطيع التخفيف من بعض التعقيدات الذاتية التي فرضت نفسها على الساحة بوحي من العصبية التي تحدّد المواقف تبعاً لتحديد الأفكار .

إن من الضروري لنا أن نتحرر من الوقوع في تقديس ما لا يحمل من القداسة شيئاً لتُعلَن الحربُ على الآخرين الذين نختلف معهم في المفهوم على أساس هذه القداسة الوهمية للأشياء . . فنطرح كل شيء للمناقشة وللحوار ليتحرك الجميع نحو الحقيقة من هذا الموقع وقد لا نستطيع الإدعاء بأن الوصول الى ذلك سهل في حساب الواقع ولكننا نعتقد أنّ القضية قد تسمح ببعض التقدم في هذا المجال فيما اذا توفرت لها الأجواء الملائمة من ناحية نفسية وفكرية وعلميّة . . لا سيما إذا جرينا مع الحقيقة التي تقول ان بعضاً من أصحاب هذه المذاهب لا يعطون مذاهبهم من العصمة والقداسة المستوى الذي يعطيه لها أتباعها المتحمسون ، بل كانوا يتواضعون عندما يقررون لها

صفة الرأي الذي يقبل التغيير والتبديل والخطأ والصواب .

إبراز النقاط المشتركة:

ولعلّ من الضروري لنا ـ في هذا الإتجاه ـ أن نقترب من الركائز الفكرية لنحركها ونناقشها في هدوء وموضوعيّة تماماً كما نناقش أية فكرة أخرى . من دون أن يكون لذلك أيّ تأثير سلبي على العلاقات الإسلامية العامة ، بل يتحول رد الفعل الى موقف فكري هادىء يواجه القضية بنفس الموضوعية والهدوء من أجل الوصول إلى الحقيقة الأصيلة التي يبحث عنها الجميع .

وقد يكون من المفيد أن نثير أمامنا النقاط المشتركة ، والخطوط العامة لما نلتقي عليه من هذه الركائز الفكرية فان ذلك قد يشارك في الإيحاء بالنظرة الواقعية لأمكانات اللقاء أو التقارب بين المذاهب في مجالات الخلاف .

وربما يقتضينا الموقف الإيجابي أن نثير في أوساطنا الشعبية النماذج الكثيرة من الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات التي تتمثل فيها وحدة الإجتهاد في فهم الشريعة ، في الوقت الذي نثير فيه ـ الى جانب ذلك ـ الخلافات الإجتهادية بين أتباع المذهب الواحد في المجالات الفقهية ، كخلافات الحنفية في داخلهم أو الشافعية فيما بينهم أو الإمامية فيما بين مجتهديهم ،

للإيحاء بأن الخلافات بين المذاهب لا تعني خروجاً على الإسلام لأنها تمثل حقيقةً في داخل المذاهب أنفسها من دون أن يترك أي أثر على وحدة الفكر والموقف .

الإهتمام بمصادر المذاهب الأخرى:

وقد نشعر بالحاجة إلى أن يمارس المجتهدون والمفكرون من أتباع أيّ مذهب ، عملية الاستنباط من خلال المصادر التي تعتمدها المذاهب الأخرى ، بالأضافة الى مصادرهم الخاصة للإيحاء بأن من الممكن أن يجد المسلمون في مصادرهم المختلفة التي يختلفون عليها بعضاً مما يُسند وجهات النظر الأخرى . . وليس من الضروري ، بل من غير المستحسن ، أن يكون اكتشاف السند للرأي الموافق من خلال مصادر الآخرين ، بمثابة نقطة ضعف يُراد تسجيلها ، أو موقف مواجهةٍ يراد تأكيده ، بل يمكن تحويله إلى موقف إيجابي يتمثل في نقطتين ايجابيتين وهما :

١ ـ الإيحاء بان من الممكن لأي طرف أن يجد الحقيقة التي يعتقدها في مصادر الطرف الآخر ليبدأ الحوار في نطاق يلتقي عليه الجميع ، أو في نطاق يمكن أن يلزم به احدهما الآخر .

٢ ـ الإيحاء بأنّ اختلاف النظرة الى سلامة أي مصدر من المصادر لا يعني طرحه كليّاً بل يقتضي التحفظ فيه مع التوفر على دراسته بعمق وشمول في محاولةٍ دائمة للوصول إلى ما يحمله في

داخله من علامات الحقيقة ودلائل الصواب .

وقد لاحظنا وجود بعض التجارب الرائدة في هذا المجال فيما كتبه بعض علماء الشيعة الامامية في قضايا الامامة أو في مسائل الفقه ، ونشير في هذا المجال الى كتب السيد عبد الحسين شرف الدين في موضوع الامامة وكتابه « مسائل فقهية » وكتابه « الفقه على المذاهب الخمسة » للشيخ محمد جواد مغنيّة ، بالإضافة الى كتب العلماء المتقدمين السائرة في هذا الاتجاه . . وقد لا ندعي خلوّ هذه التجارب من بعض السلبيات التي يلاحظها اخواننا المسلمين من أهل المذاهب الأخرى ، إلا اننا نسجل لها ايجابيات كبيرة مما يجعل منها خطوات متقدمة في هذا الإتجاه .

احياء اللقاءات والندوات المشتركة بين علماء المذاهب:

وقد لا نشعر بكفاية هذا المقدار في التخفيف من السلبيات الفكرية للخلاف ، لأن الفكر الذي يتحرّك لدى أصحابه من بعيد ، لا يعطي روح الوفاق جوّاً حميماً ، بل يبقى الوضع خاضعاً للأجواء الرسمية المعتمدة على المجاملة والمداراة ، فلا بد من العلاقات الشخصية بين العلماء من كافّة المذاهب ، واللقاءات المتعددة في الندوات المشتركة لأنّ مثل ذلك قد يساهم في إعطاء المفاهيم واخراجها بصورة أكثر صفاء وواقعية

وإعتدالاً . وقد يتحول ذلك إلى مدرسة اسلامية في اتباع أساليب الحوار الموضوعي الهاديء المرتكز على النظرة العلمية الهادئة للأفكار وللأشياء ، لأن طبيعة الجو تفرض على كل فريق قدراً من الإلتزام والإنضباط في الكلمة والجو والأسلوب ، وتوحي لكل جهةٍ بالروح الإسلامية التي تعيشها الجهة الأخرى حتى في الحالات التي تعتبر فيها المواقف خاطئة فان من الممكن للإنسان أن يقع في الخطأ وهو في قمّة الإخلاص .

وإننا عندما نركز على اللقاءات المشتركة بين العلماء ، لا نريد أن نحصر القضايا في هذا النطاق بل نريد للتفاعل الإجتماعي بين المسلمين أن يمتد الى حياة كل فرد منهم ليشعر الجميع بالقضايا المشتركة التي تتصل بالمصير الواحد والهدف الواحد فيتعارفوا ويتآلفوا ويتفاهموا ليتقاربوا في فهم الأمور وممارساتها ، ولعلنا ـ في تأكيدنا للقاءات بين العلماء ـ نعمل على التركيز على الأهمية الكبيرة لذلك باعتبارهم الطليعة الواعية للأمة التي اذا صلحت صلح أمر الناس واذا فسدت فسد أمر الناس . . ولأنّ عوامل الإثارة قد تتحرك من خلال أساليب الإنفعال التي يواجهون بها الأمور ويوجهون على أساسها الخُطى . . فاذا استقام لهم الأسلوب الهادىء والمسؤولية الواعية والتحرك المتزن والنظرة الموضوعية للقضايا ، أمكن للأمة أن تطمئن للمسيرة ، وأن تستريح للواقع وتنطلق بعيداً بعيداً نحو أهدافها الكبار في حركة الرسالة في التاريخ .

الإنفتاح الفكري أيضاً:

أننا نحاول من خلال العرض الذي قدمناه أن نتمثل ملامح المذهبية الفكرية التي تشير الى إختلاف وجهات النظر كفكر يفرض نفسه على الساحة ، لا كإطار يحدد الساحة ويضيّقها على العاملين ويخلق في داخلها العُقد النفسية ، ويثير في اجوائها الحقد والبغضاء . . وقد لاحظنا في العهود الإسلامية الاولى كيف كان المسلمون يعيشون هذه الأجواء ويتمثلون هذه الروح ويتحركون في هذا الإتجاه فلم يضيقوا بالاجتهادات المتعارضة إلّا كما يضيق إنسان بالفكر الذي يخالف فكره ، بعيداً عن أيّ عنف أو تعقيد إلّا في بعض الحالات التي كانت تتصل بقضايا الحكم والحاكمين الذين يحلو لهم في بعض الأحيان أن يضطهدوا الرأي المخالف لما يرون أو يعتنقون .

وأحسب أن الإنفتاح الفكري ـ الذي انطلق فيه الإنسان المعاصر على أساس الحركة العلمية المتطورة المتنامية التي أطلقت الفكر من أساره ، وحررته من الخرافات والتفاهات والإرتجال والإنفعاليات الطارئة ـ قد استطاع أن يمنح الإنسان المسلم بعضاً من سعة الأفق ورحابة الصدر وواقعية النظر وموضوعية الفكر بحيث أمكن له أن يفكر في القضايا التي يختلف فيها مع المسلمين الآخرين تفكيراً منفتحاً عميقاً بعيداً عن التعقيد الذاتي والأفق الضيق، وربما استطاعت النهضة العلمية الثقافية أن

تساهم في تقديم تجارب ناجحة للموضوعية والعمق من خلال الدراسات الاسلامية التي أصبحت تقدّم مختلف الأفكار والمذاهب الإسلامية من مصادرها الموثوقة فأصبحنا نلتقي بالموسوعات الفقهية التي تعرض مختلف الإجتهادات الاسلامية في اسلوب علمي هادىء ، كما نلتقي بالأبحاث التي تعرض للمفاهيم الإسلامية العامة في قضايا الإنسان والحياة من خلال الفكر الإسلامي المنفتح على الآراء المختلفة . . وقد يجد الإنسان في بعض هذه الدراسات لوناً من ألوان الإسترسال مع جانب والإنكماش مع جانب آخر ولكنها طبيعة الألفة والإنفتاح على الثقافة المعنية هنا وعدم الإنفتاح عليها هناك واننا نرجو أن يمتد هذا الجو العلمي الموضوعي فيشمل الساحات الإجتماعية المتنوعة ، ويتحوّل الى ذهنية إسلامية تتحرك في خطوات الإسلام الفكرية والعلمية من خلال الإخلاص للرسالة وللعلم وللحياة ليمكن للمسلمين أن يتحولوا الى فريق واحد يحتضن عدة أفكار ومفاهيم في داخله في نطاق الحوار الهادىء بدلاً من أن يكونوا عدة فرقاء تباعدهم الأجواء القاتمة عن اللقاء والحوار إلا من بعيد .

التشبث بالاسلام كدعوة عالمية تتسع للحياة:

وقد يحسب بعض الناس ، أنّ مثل هذا الإتجاه في التصور ، يجعلنا نغرق في الخيال . . لأن الواقع الذي نعيش لا

يسمح بمثل هذا التجرد والموضوعية في مواجهة المشكلة . . ولكننا نجيب على ذلك ، إن كل مشكلة من مشاكل الواقع لا يمكن أن تتحرك في طريق الحل إلاّ من خلال تغيير ملامح الواقع سواء في ذلك تغيير الذهنية التي تحكمه ، أو الظروف التي تحيط به . . ونحن هنا ، من أجل تغيير الذهنية من خلال الإنفتاح المعاصر الذي يتحرك فيه الإنسان ككل . كخطوةٍ في طريق تغيير الظروف المتحكمة في خط الواقع ولا بد لذلك من التخطيط الدائب للأساليب العملية التي تستخدم في هذا السبيل ، وللتجارب الغنيّة بالعطاء التي نستمد من نجاحها الكثير الكثير مما يغني الساحة بالنتائج الجيدة النامية في موسم الربيع المعطاء في واقع الإنسان ، وقد ألمحنا فيما قدّمنا من حديث الى أنّ هناك من الإيجابيات ما يكفل لنا التقدم ولو خطوات في طريق التخلص من بعض السلبيات .

وقد نشعر بالحاجة الى شرط أساسي وضروري من أجل الوصول إلى هذه النتيجة وهو الإخلاص للإسلام كدعوة عالمية تتسع للحياة ، لتحكم الحياة ، فإن امتداد الهدف واتساعه يخلق في النفس بُعداً جديداً في نظرة الإنسان إلى الأُفق ، ويحقق للإنسان رؤ ية جديدة للأشياء لأن الرسالة في مدلولها الروحي والفكري ، لا تتجمّد في الزوايا الضيّقة من الحياة بل تحاول أن تهدّم الجدران من حولها وتتجاوز الحواجز وتتعامل مع الإمتداد ، وفي ضوء هذا نلتقي بالصبر المنطلق مع رحابة

الصدر وسعة الأفق كعنصر أصيل من عناصر الشخصية الرسالية التي تعتبر الآفاق التي يمكن أن تبلغها الرسالة في مداها الطويل، هي آفاقها الفكرية والعملية .. وترى أنّ الطريق ليست مفروشة بالورود، وليست معبّدة بالامنيات، فالأشواك هي طريق الجهاد الصعب، والعقبات هي المسرى الطبيعي للمجاهدين .. ولهذا فانهم ينتظرون ذلك كله فيما ينتظرون فلا تزعجهم العقبات ولا تحرجهم الأشواك، ولا تهزمهم الآلام التي تتجمع في الطريق.. وعلى هذا الأساس فان الإخلاص العميق للإسلام لا يلتقي بالطائفية السياسية التي تحوّل الإنسان الى محترف يجلس ليتعامل في دكانه مع الآخرين من موقع المهنة والحرفة لا من موقع الرسالة، ليكون التحرك مع الذين يدفعون أكثر من غيرهم ويتزلفون مع المتزلفين .. وعندئذ نلتقي بالقضية في حركة الشكل بعيداً عن المضمون مما يُغري الآخرين بالإستغلال للعواطف وللمصالح وللتعقيدات وللحساسيات التي تلتهب بسرعة وتنطفيء بسرعة وأخيراً .. إننا مع مذهبية الفكر ولسنا مع المذهبية الطائفية التي تحول الموقف الى عصبيّة تبحث عن الإثارة، لا عقلانية تفتش عن حركة الفكر وإتجاهاته .. في كل مراحل الطريق .

تأملات في مسيرة القرن الخامس عشر الهجري

تأملات في مسيرة القرن الخامس عشر الهجري

ما هو الطرح الإسلامي في مطلع هذا القرن الهجري الجديد ؟ وما هي مسيرة الإسلام فيما نستقبل من سنين جديدة ؟ هذان هما السؤالان اللذان يطرحهما الإنسان المسلم على نفسه أمام الواقع الإسلامي الذي يتحرك من أجل تطلعات جديدة لقرن جديد . . فقد اعتاد الناس أن يعتبروا بداية القرن إشارة لرحلة جديدة لا بد أن تبدأ ، كما لو كانت القرون تعني مرحلة معينة في مراحل تنوّع الأدوار .

وقد تحدث الرواة أن الحديث الشريف قد أكد على الحديث عن القرون التي يقف القرن الأول للهجرة في مقدمتها ، وأشار الى أن الله يبعث لهذه الأمة في كل قرن من يجدّد لها دينها وأفاض المحدّثون والمحلّلون للأحاديث ، الحديث عن معنى هذا التجديد للدين ، ما دام الدين وحياً من الله

وبلاغاً من رسوله فلا مجال لأيّة شريعة جديدة في حكم جديد أو مفهوم جديد ، وكان فيما قالوه ، أن التجديد هو تجديد حيوية الدين وقوّته في حركة مفاهيمه التطبيقية في الحياة ، لأن مرور السنين قد يضعف من هذه القوّة ، وقد يخفف من حيويّة الإندفاع . . واختلفوا بعد ذلك في عملية إحصاء هؤلاء المجددين ، بين من يحصرهم في نطاق فئة معينة ، كالفقهاء ، أو الحكام أو القادة . . كما اختلفوا في تحديد مذهب هؤلاء باعتبار أن المذهب يمثل وجهة النظر الحقيقية للدين . . وهكذا انطلق هؤلاء في حديث طويل لا نفع فيه ولا غنى . . ونحن لا نريد أن نخوض فيما خاضوا فيه ، لأننا نتحفظ في صحة مثل هذا الحديث كما نتحفظ في اعتبار بداية القرن تمثل وقفة أمام حركة التاريخ . . لأن قضية مسيرة الأمم والمباديء لا تخضع للعدّ الزمني ، بل تخضع للظروف الموضوعية التي تساهم في دفع هذه المسيرة الى الأمام أو إرجاعها الى الوراء . ولكننا نريد أن نواجه المستقبل الإسلامي في عملية رصد دائمة في حساب اليوم والشهر والسنة والقرن . . والحياة كلها من أجل أن تبقى الخطى سائرة في وضوح الرؤ ية وسلامة القصد . . تماماً كما هي المحطات في مراحل في مراحل الطريق التي تغري بالاستراحة من عناء التعب من جهة وتدعو الى التأمل في المسافات الماضية والباقية في طريق الغاية المنشودة . . فان المحطات الزمنية لا تختلف في مدلولها ومغزاها عن المحطات المكانية . .

وهـذا هو مـا نريـد أن نتـوقف أمـامـه للجـواب عن هـذين السؤالين .

النظرة الغربية للدين:

قـد يتجه البعض الى التبسيط في الجـواب عن السؤال الأول فيقـول ـ ببساطـة ـ ان الإسلام يـطرح في هذا القـرن كـما طـرح نفسـه في بدايـة القرن الأول للهجـرة ، كمنـطلق لحـركـة الحيـاة المتكـاملة في نـطاق المـادة والـروح ، لأنـه لا يمثـل ـ في تكـوينـه الفكـري والتشريعي ـ نتـاج مرحلة زمنيـة محددة لتجـربة إنسـانية محدودة ، بل يمثـل في واقعه الأصيـل ـ رسالـة الله التي أنزلهـا على عبـده ورسولـه محمـد بن عبـد الله صـلى الله عليـه وآلـه وسلم ، لتخرج الناس من الـظلمات الى النـور ولتربـطهم بالخط المستقيم الـذي ترتبط فيـه النهايـة بالبـداية وهـو دين الحياة الـذي لا دين بعده باعتباره خاتمة الأديان بعد أن قرّر قـرآنه الكـريم أن نبيّه هـو خـاتم النبيين . . فليست لـديه طـروحات جـديدة يستنبـطها من حـركة الحيـاة الجديـدة لأن طروحـاتـه الأصليـة لا تـزال تتحـرك لتحرك الحياة من حولها على خط الله فيما ينفع الناس .

وقـد يعلّق البعض عـلى هـذا الـطرح المبسّط ، أن القـرن الجديد يحفل بتحديـات صعبة وأوضـاع معقدة في مجـال السياسـة والإجتمـاع والإقتصاد والتـربيـة والحـرب والسلم ، الأمـر الـذي يحـوجنـا الى الكثـير من الـدقـة في النـظر والعمق في التحليـل والشمـول في المواجهـة . . والإسلام هـو دين يحفل بمـا يحفل بـه

كل دين من عبادات وطقوس وأفكار عـامة عن الكـون والحياة ، فـلا يملك الرؤ يـة التفصيلية لقضـايا الـواقـع وشؤ ون الحيـاة . . وقـد اعتاد النـاس على أن الأديـان تقدم للنـاس البـركـة في حـلّ مشاكلهم ، وتعطيهم الأفكار العامة من خلال الـوصايـا والمواعظ والنصائح المثالية التي لا تلامس الواقع إلاّ من بعيد مما يقتضينا أن نواجه التطور بعقلية منفتحة جديدة تقدم لـلإنسـان طـروحـات متقدمة في إطار المفهوم الإسلامي الروحي للحياة مماُ يستلهمه من حركة الروح في مسيرة الانسان في الواقع .

سر استمرارية الإسلام

ولكن مثـل هذه النـظرة ، ليست هي نظرتنـا عن الدين بـل هي نـظرة الغرب إليـه من خلال تجـربته المحـدودة معـه . . أمـا الإسـلام في حقيقتـه ، فـإنـه يستـوعب الحيـاة كلهـا من خـلال مفاهيمه العامة عن الكـون ، ومن خلال تشـريعاتـه التفصيلية في صعيـد الواقـع . . وقد استـطاع أن يعيش طيلة قرون وهـو يقدّم للناس برنامج حيـاتهم من دون حاجـة الى استعارة بـرنامـج آخر من مصـدر آخـر . . وإذا كـان الإجتهـاد يقـدم لنـا في كـل زمن معـطيات جـديدة لقضـايـا جـديـدة انـطلقت من خـلال التـطور المـوضوعي للواقـع ، فليس معنى ذلـك أن الإجتهـاد يستحـدث للإنسان أحكـاماً جـديدة من مـوقع التـطور الحياتي المنفصـل عن قـواعـد الإسـلام وأحكـامـه ، بـل هــو يستنبط الحكم من دليله

المنطلق من المصادر الأصيلة للتشريع في الإسلام . . ومن هنا كانت حركة الإجتهاد تمثل انفتاح الإسلام على الواقع في عملية تطويره للواقع . . بدلاً من أن يكون ـ كما يرى البعض ـ عملية تطوير للإسلام من خلال حركة الواقع .

أمّا قصة التقدم العلمي والعملي ، فهي قصة القواعد العامة التي يواجه بها الإسلام حركة الحياة . . وربما كان علينا أن نفرّق بين الإكتشافات والتطلعات العلمية في مجال خدمات الحياة وأوضاعها الآليّة ، وبين النظريات والأفكار التي تنظّم هذه الحياة وتقودها نحو هدف محدّد وخط معين فان الاسلام يحتضن كل مجالات التقدم العلمي فيضع الحقائق العلمية في نطاق الحقيقة الحاسمة ، ويضع النظريات العلمية في نطاق الفرضيات التي يمكن ان يثق بها الانسان او يناقشها الحساب .

أمّا النظريات المتعلقة بحركة الواقع فان الاسلام يطرح أمامها نظريته في هذا الجو ليدور الحوار والصراع من خلالها ولتكون النتيجة في مصلحة النظرية الاقرب الى مصلحة الانسان في حاضرة ومستقبله ، كما يريدها الله له . . وبذلك لا يعتبر التطور المنطلق من سيطرة هذه النظرية أو تلك تطوراً منطلقاً من طبيعة الحياة بحيث لا مجال لمقاومته ، بل يضعه في اطاره الصحيح وهو أن يكون تطوراً في ظل قوة هذه النظرية وسيطرتها مما يجعل امكان افساح المجال لنظريات أخرى فرصة معقولة في الساحة .

ان الاسلام يطرح نفسه في الساحة من خلال حلوله الأصيلة لمشاكل الحياة ، كحل بديل لكل الحلول الأخرى التي لم تستطع ان تقدم السعادة للانسان لأنها ترتكز على نظرية العامل الواحد الذي يحكم حركة الانسان في الحياة سواء أكان ذلك العامل هو العامل المادي المتمثل في الجانب الاقتصادي او الجنسي او غيرهما من العوامل التي تحفل بها حياة الانسان ، ام هو العامل الروحي المجرد الذي يتمثل فيما ترتأيه الفلسفات الهندية وغيرها مما يركز فيه الانسان على الجانب الروحي في الطهارة ، والتحرر بعيداً عن الجانب الماديَ . .

الطرح الديني الخاطىء والمشكلة الطائفية :

وقد يثير البعض ـ في هذا المجال ـ موضوع تعدد الأديان في الساحة الواحدة للوطن ، او للأمة ، أو للمنطقة ، مما يجعل من قضية إثارة الاسلام حافزاً للاستعمار ، ولكل القوى المتعاونة معه ان تفجر الوضع الطائفي من خلال الخلافات الدينية ، فيؤدي ذلك الى تقسيم البلاد على هذا الأساس ، أو تفتيت الأمة في هذا الاتجاه . . وقد يؤكدون على طبيعة المرحلة الحاضرة وخطورتها في الجو السياسي الذي يتجه الى اعادة النظر في تركيبة الدول في هذه المنطقة لتصاغ صياغةً جديدة على الأسس المنحرفة المنطلقة من مصالح الاستعمار الكافر وأطماعه .

ولكننا نعلق على ذلك ، بان مشكلة الطائفية في هذه المنطقة قد تحركت من الأسلوب الذي يطرح فيه الاسلام كإطار يؤطر المجتمع ببعض الطقوس والتقاليد ، بعيداً عن جانب الفكر، الأمر الذي قد يثير الكثير من المشاعر المضادة التي تحفل بها الأطر الدينية الأخرى ، مما يجعل من قضية الدين قضية تجمعات بشرية ترتبط بالاطار النسبي والشكلي للدين من دون دخل للانتماء الفكري او العملي للحياة ، كما لو كان الواقع الديني يمثل عشائرية جديدة تحمل الطابع الديني في وجهها وتطلعاتها القريبة والبعيدة .

الصيغة الجديدة للطرح الديني :

أما نحن فنريد أن نغير هذه الصيغة التقليدية للطرح الديني بصيغة جديدة لا تتنكر للجانب الغيبي والعبادي والروحي للدين فيما يستتبعه من عقيدة وطقوس وعبادات ، ولكنها تؤكد على أساس ما يحمله الدين في داخله وتفاصيله من فكر عن الكون والحياة من خلال عقيدته ومفهومه الممتد الشامل تماماً كما يُطرح أي فكر آخر من موقع الفكر ، وتتحرك من موقع الحلول العملية للمشاكل العامة والخاصة في شريعته التي تقف لتواجه المشاكل في الساحة الانسانية ، كأي حلول أخرى لمشاكل الانسان .

وربما يكون مثل هذا الطرح بعيداً عن الطبيعة العامة

للتوجه الديني المعاصر سواءً في الساحة الاسلامية او في غيرها ، لأننا اعتدنا أن نقدم الدين في صورة ضبابية يلفها الغموض وتحكمها القداسة من دون أن نفسح المجال لأية مناقشة علمية هادئة مما جعل من الفكر الديني شيئاً غير قابل للمناقشة والتفكير فلا يثير في النفس أمام التحديات المضادة الا مشاعر الانفعال والهياج والتوتر النفسي الشديد لأنه لا يقدر على غير ذلك . . واننا لنشعر بأن الاصرار على هذا الطرح في اسلوبه العملي هو الذي يفوّت على الاستعمار خططه الشريرة التي يستهدف منها احتواء الواقع لأهدافه وأطماعه ، لأن ذلك هو الذي يمنع من اعتبار الدين عنصراً من عناصر إشعال الحقد في قلوب الناس ضد بعضهم البعض، ويدفع الدين الى الساحة من مواقعه الفكرية والعملية بعيداً عن النوازع العاطفية والشعوريّة . فتثير الخلافات التفكير، بدلاً من اثارتها الحقد الأعمى . . ونحن لا نحتاج في هذا وفي غيره الا الى الرجوع الى الأسلوب القرآني في العرض وفي الصورة ، وفي الاطار ، فقد طرح القرآن الكريم افكاره في العقيدة وفي الشريعة على أساس أن يفهمها الآخرون او يقتنعوا بها من موقع الحوار والتفكر والتأمل .

وفي هذا الجو ، يمكننا ان نغير الاطار الذي وضع فيه الدين من قبل الكثيرين من الشرق والغرب .

ولعل من أفضل الأساليب للوصول الى هذا الهدف ، أن

نـدرس المراحـل التي استطاع الاسـلام ـ من خلالهـا ـ أن يعيشها في تـطبيق مفاهيمـه وشريعتـه على النـاس للتـأكيـد عـلى الجـانب الحيـاتي الشامـل للاسـلام . . ولا بد لنـا من ملاحقـة التجـربـة الاسلامية التي تخوضها الثـورة الاسلاميـة في ايران سواء في ذلك الجانب الدستوري المتمثل فيِ دستـورها ، او الجـانب التنفيذي او التطبيقي في قضايا الحياة العامة والخاصة .

وانا نعتقد ان من واجب المسلمـين القيام بمهمـة الدعـوة الى الاسلام على هـذا النحو المتكـامل لئـلا يتركـوا أمامهم أي فـراغ فكـري او تشـريعي يبحث عن غـير الاسـلام ليمـلأه في سـاحـة الفكـر والواقـع ، ونؤمن ـ الى جانب ذلـك ـ بأن من الضـروري لنا ، إفساح المجال للحوار في كـل ما نـطرحه من طـروحات من اجل الوصول الى قناعات الآخرين من خـلال الحوار مهـما كانت الطروحات المضادة صعبة ومثيرة .

الثورة او الاصلاح :

وربمـا كان من الضـروري لنا مـواجهـة المـوضـوع من جهـة اخرى ، وهي ان البعض ممن يتحركـون في اتجاه صنـع الثورة في الـواقع يـطرحون فكـرة الاصلاح في مقـابل فكـرة التغيير ، وقـد يميـل الكثيرون الى التنكـر لفكرة الاصـلاح على اسـاس ان ذلك قـد يعطل مسيـرة الثورة وذلـك بربط الأمـة بـالـواقـع الترميمي

للمشكلة ، ولهذا تعمل بعض الثورات على أساس زيادة مشاكل الواقع من اجل التعجيل بتفجيره كأسلوب رائد في عملية صنع الظروف الموضوعية للثورة .

ولكننا من وجهة نظر إسلامية ـ نرى أن الاسلام يعمل في نطاق الاصلاح ، كما يعمل في نطاق التغيير الكلي المعبر عنه بالثورة فاذا امكن لنا ممارسة بعض الاصلاح في قضايا الأمة الحياتية فان ذلك واجب علينا ـ اسلامياً ـ حتى اذا لم يكن هذا الحل موجبا لانهاء المشكلة في العمق لأن الله يريد أن يطاع في القضايا الجزئية كما يريد أن يطاع في القضايا الكلية ، ولهذا كان الانسان المسلم ملزماً ـ شرعاً ـ بالامتناع عن بعض المحرمات الغذائية والمالية والسياسية حتى في داخل المجتمع المنحرف الذي يتبنى هذه المحرمات في نظامه او في حياته العملية ، خلافاً لبعض الأنظمة الأخرى التي تضع الحكم في نطاق الحل الشامل .

وفي هذا الجو يعمل المسلمون على افساح المجال لبعض الأحكام الشرعية ان تُطبق في المجتمع من اجل ان تعطي الناس جوّاً اسلامياً في جانب النظرية والتطبيق . . وهذا هو الذي يجعلنا نصرّ ونعمل على ان تبقى قوانين الأحوال الشخصية خاضعة للحكم الشرعي الاسلامي في حياة المسلمين في لبنان وغير لبنان من بلاد المسلمين التي حكمها الاسلام ككل وذلك من أجل ان يظل المسلمون محكومين للاسلام ، ولو

في هذا النطاق المحدود .

وفي الوقت نفسه نظل نعمل مع العاملين في سبيل الله من أجل الوقوف ضد الكثير من ألوان الانحرافات الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية لنفسح المجال للاصلاح الجزئي فيها ـ مرحلياً ـ في الوقت الذي لا يكون الاصلاح الكلي حلاً عملياً في الساحة الحاضرة . . ولا يعني هذا ان نتجمد امام الحلول الجزئية فنجعلها هدفاً كبيراً نسعى اليه ، بل كل ما نعنيه هو أن نعتبر الخطوات الصغيرة مرحلة في الخطوات الكبيرة في الطريق الطويل بحيث تظل الفكرة العامة تمثل الهاجس الدائم في تعاملنا مع الفكرة الخاصة .

هذا كله فيما يتصل بالواقع الذي يرتبط بالاسلام والمسلمين من خلال الطرح الاسلامي في الساحة الاسلامية وغيرها . . أن نعمل على تغيير الواقع لمصلحة الاسلام بالأساليب التي طرحها الاسلام كأساس للتغيير بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، والصبر الايجابي القائم على أسلوب القوة الداخلية المنفتحة على الحياة من خلال الرفق واللاعنف .

قضايانا الإسلامية وموقفنا منها

قضايانا الإسلامية وموقفنا منها

ماهو موقفنا من قضايا العالم الإسلامي في مشاكله الإقليمية والسياسية والعسكرية والإقتصادية ؟ .

كيف ننظر إليها وكيف نتعامل معها ؟ .

هل نتبناها في طروحاتها المتنوعة من خلال أنها قضايانا الإسلامية في العمق ، وإن اختلفت في الشكل الذي ظهرت فيه أو ماذا ؟ .

هذ أسئلة لا بد في الجواب عنها من إثارة عدة نقاط :

النقطة الأولى : إن القضية الإسلامية هي القضية التي تتصل بأرض إسلامية ، أو بشعب مسلم ، أو بفكر أو تشريع إسلامي أو بثروة إسلامية . . فإذا كانت هناك أرض اسلامية مغتصبة ، كفلسطين ، أو معرّضة للإغتصاب ، كجبل عامل فمعنى ذلك أن هناك قضية إسلامية تنتظرنا . . في خط الحركة والجهاد على جميع المستويات . .

واذا كـان هنـاك شعب مسلم مضـطهـد من قِبَـل السلطات المستعمرة كالأفغـان الذي يسيـطر عليه الإتحـاد السوفيـاتي بشكل مبـاشر ، أو الـدول الخـاضعـة لـلإستعمـار الأمـريكي والأوروبي بشكــل غــير مبــاشــر كــاغلب الــدول التي تسمي نفسهــا بـ« الإســلامية » ، أو كـان هناك شعب مسلم مضـطهد من قبـل سلطاته الطاغية التي تخنق فيه إرادته للحياة عـلى أساس الإســلام كالعراق وغيره من الدول التي تـلاحق العاملين لـلإسلام في كـل مكـان بالقتـل والسجن والتشريـد ، فهناك قضيـة إسلاميـة تنتظر العاملين للإنطلاق بقوة ضد الإستعمار والطغيان والعدوان . .

وإذا كـانت الثـروات البتـروليـة وغيـرهـا تخضـع لسيـاســة إقتصادية استعمارية متحـركة في خط المصـالح الإستعمـارية التي تقف في وجه المصالـح الحقيقية للشعـوب الإسلاميـة فتمنعها من حرية الحركة في بناء اقتصادهـا المستقل الـذي يحقق لها الإكتفـاء الـذاتي ، وتعمل عـلى تعطيـل كل مبـادرة من هذا القبيـل بشكل مباشر أو غير مباشر من أجل إشغالها بخلافات جانبية ، أو إثارة بعض الأوضاع العسكرية ضدّها كما نواجهه في الضجّـة المصطنعـة التي أثـارتهـا الـدول الإستعمـاريـة فيـما يسمي « بــالخـطر عــلى الخليـج » لإبقــاء الإرتهــان البتــرولي تحت رحمــة السيــاســة الإستعمـاريـة . وتخـطيط مصـالحهـا الإقتصـاديـة . . بعيـداً عن مصلحـة الدول المنتجـة . . فهذه هي قضيـة اسلاميـة لا بـد أن يـواجهها المسلمـون بـالخـطط العمليـة البعيـدة المـدى من أجـل

تخريب المعادلات الإستعمارية في الحاضر والمستقبل .

واذا كان هناك تخطيط كافر مضلّل يستهدف التشكيك بالعقائد الإسلامية أو تشويه المفاهيم الاسلامية أو إبعاد الشريعة الإسلامية عن الحياة ، أو مهاجمة الفكر والتاريخ والحضارة الإسلامية فان هناك قضية إسلامية لا بد أن يواجهها المفكرون المسلمون والعاملون في الحقل الإسلامي بجدّية الفكر والأسلوب والممارسة من أجل المحافظة على الإسلام عقيدةً وفكراً وشريعة وحركة في داخل الحياة . .

ان القضية الإسلامية هي كل قضية تتصل بكيان الإسلام والمسلمين في وجودهم الفكري والتشريعي والإجتماعي والسياسي والإقتصادي والتربوي في جميع مجالات الحياة .

النقطة الثانية : أن القضايا الإسلامية في حركتها في صعيد الواقع تختلف في شكلها الإسلامي وطابعها السياسي تبعاً للتيارات الفكرية والسياسية التي تحرك هذه القضايا وتتحرك من خلالها .

فهناك التيار القومي الذي يعتبر الشخصية القومية أساساً للقاعدة السياسية المتحركة في حياة الناس فلكل أمّة يلتقي أفرادها في اللغة والعادات والتقاليد والأرض والتاريخ ، شخصية قومية موحّدة من خلال هذه العناصر . ولا بدّ لها من

أن تعيش ضمن وحدةٍ سياسية قومية ، تلغي كلّ جانب من جوانب الشخصية الأخرى بما في ذلك الدين والإقليم وغيرهما ، أمام الجانب القومي فلا قيمة مع الوحدة القومية للإختلاف في الدين أو الإقليم أو نحوهما وهذا ما نواجهه في حركة القوميات ، فيما نواجهه في حركة القومية العربية والتركية والفارسية والكردية والسورية في منطقتنا الإسلامية هذه .

وهناك التيارات الإقليمية التي تعمل على التركيز على الجانب الإقليمي كأساس للوحدة ، وذلك من خلال الوحدة الجغرافية الطبيعية أو السياسية لبلد ما . . بعيداً عن الإختلافات القومية والدينية ، وذلك فيما يتمثل من التحرك الوطني الذي يعتبر الوطن هو كل شيء في الوحدة . . فعلى كل وطن أن يهتم بمصالحه فلا ينظر الى مصالح الآخرين إلّا بمقدار ارتباطها بمصالحه الإقليمية بعيداً عن المباديء والقيم الكبيرة في الحياة . . يتمثل هذا في الوطنية المصرية واللبنانية والعراقية وغيرها .

وهناك التيارات العنصرية التي تتمثل في اعتبار وحدة العنصر أساساً للوحدة الإنسانية بعيداً عن كل العوامل الأخرى كما نواجهه في عنصرية الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود التي تواجهها عنصرية الرجل الأسود ضد الرجل الأبيض فيما يحاول المفكرون السود أن يكتشفوه من عناصر القوة والوحدة في الشخصية الزنجية من خلال التيار الجديد الذي

يطلق على نفسه الزنوجة . . وهذا ما نلتقيه في بلاد اميركا واوروبا وأفريقيا .

وهناك التيارات الماركسية التي تحاول أن تصوغ القضايا الإسلامية صياغةً ماركسية وذلك بإبعاد الجانب الإسلامي عنها ، والتركيز على الجانب الإقتصادي الذي يحرّك الفكر والسياسة والإجتماع والدين ويصنعها في حركة التطور للحياة وللإنسان . . فليست هناك مشاكل قومية وإقليمية أو دينية بل هناك مشكلة إنسانية واحدة تخترق كل الحواجز والحدود ، وهي مشكلة الواقع الإقتصادي الطبقي الذي يحكم كل مظاهر الحياة .

* * *

ولعل من أبرز القضايا الإسلامية التي تتمثل فيها غالب هذه التيارات . . هي « القضية الفلسطينية » التي تتنوع طروحاتها تبعاً لتنوع التيارات المتحركة على الساحة الفلسطينية فهناك التيار الإقليمي الذي يحاول التأكيد على الشخصية الفلسطينية في إطارها الإقليمي ، وهناك التيار القومي الذي يتحرك على أساس اعتبارها قضيةً قومية عربية باعتبارها تمثل التحدي الصهيوني ضد الوجود العربي . وهناك التيار الماركسي الذي يعتبرها قضية مرتبطة بحركة التحرر من الإستعمار فيما تمثله الصهيونية من مصالح الإحتكارات الرأسمالية ضد قضايا الشعوب المضطهدة في العالم . . وهناك التيار الإسلامي الذي

يعمل على أن يجعلها كما هي في واقعها الأصيل قضية اسلامية من خلال أنها أرض اسلامية مغتصبة ، وشعب اسلامي مشرّد ومضطهد ، ووجود إسلامي سياسي مضاع. .

النقطة الثالثة : ماهو موقفنا من القضايا الإسلامية أمام كل هذه الطروحات غير الإسلامية . .

هل نقف مع القضايا التي تتحرك في الإطار الإسلامي ونترك القضايا الأخرى التي تنطلق في الإتجاه الإقليمي أو القومي أو الماركسي ، فلا نلتفت إليها ، ولا نلقي إليها بالاً ، لأنها ليست قضايانا فيما تمثله القضايا الإسلامية من إطار يرتبط بالخط الإسلامي الفكري الأصيل .

أو أننا لا نتوقف أمام السطح بل نحاول أن ننفذ الى العمق لمواجهة جوهر القضية من ناحية ميدانية فنجد أمامنا ارضاً اسلامية بحاجة الى الانقاذ، وشعباً مسلماً بحاجةٍ الى العزة والكرامة والرجوع الى أرضه وسيادته .

ربما يذهب بعض العاملين للإسلام الى الإتجاه الأول ، فيلاحظ ـ في عرض وجهة نظره ـ أنّ الوقوف مع هذه الطروحات يعني تأييد الخط الذي تتحرك فيه . . وتقوية الفريق الذي ينادي به . . وإضعاف الخطّ الإسلامي أمام طغيان الخط

الآخـر . . ويمكن ان تكون القضيـة الفلسـطينيـة هي المثـال . . فـانها تتحرك الآن في السـاحة الـواقعية بـين الخط القـومي والخط المـاركسي اللذين قـد يتـداخـلان في بعض الــطروحـات وقــد يختلفان . . أما الخط الإسلامي فانه لا يملك قوّة متحـركة فـاعلة في السـاحة الفلسـطينيـة . . فـاذا وقفنـا مـع القضيـة في وضعهـا الحـالي ، فان ذلـك سوف يـدفع هـذين الخطين الى مـركز القـوة الأعـظم عـلى الصعيـد الفلسـطيني والعـربي والعـالمي من خـلال حـركة المعـركة في تضحيـاتها وبـطولاتها وانتصاراتها ويبعـد الخط الإسـلامي مـراحـل الى الـوراء لأنعـدام فـاعليتـه في السـاحــة الإسـلاميـة ، لا سيّـما فيـما تمثله هـذه السـاحــة في فلسـطين من مقدسات اسـلامية كـالقدس . . وهـذا ما لا يتنـاسب مع حـركة الإنطلاقة الإسـلامية التي تـريد أن تتسلم قيـادة الحياة لتكـون لها ـ وحـدهـا ـ كلمــة الفصـل في القضــايـا الإســلاميـة العــامّـة والخاصة . .

إن هـذا الإتجاه يلخص معـارضتـه في كلمـةٍ واحـدةٍ ، وهي أن تأييد القضيـة المتحركـة في خط الكفر والإنحـراف يمثل تـأييداً لهما ، ودعماً للمنكر الذي يمثـلانه . ورفضـاً للمعروف المتمثـل في الإسلام الذي تعمل القضية على اضعافه وتقوية خصومه .

* * *

ويـذهب فـريق آخـر الى الإتجـاه الثــاني . . فيقـرر ان من

واجب المسلمين الوقوف مع كـل قضية اسـلامية في العمق ، وإن أثارها الآخرون في ثوب جـديد غـير إسلامي . . ويـلاحظ ـ هذا الفريق ـ وهو يعلق عـلى وجهة النـظر الأولى ـ أن ابتعاد العـاملين لـلإسلام عن تـأييد القضيـة في معركتهـا المتحركـة الحاسمـة ضد الصهيونية والإستعمار ، سوف يضيع علينا هدفين رئيسين :

الأول : إضعاف العدو الصهيـوني والإستعماري من خـلال وحـدة القوى المشتـركـة العـاملة ضـدّهُ عـلى اختـلاف نـزعـاتهـا واتجاهاتها . . فإن ذلك يعطي المعركة حجـماً كبيراً يضعف العـدوّ من قوّة غاشمة طاغية ضد الوجود الإسلامي على صعيد الحاضر والمستقبـل ـ مما يؤثـر ـ في حـالـة ضعفـه وزوالـه ، في إيجـاد قـوة سلبية للإسلام وللمسلمين عـلى أساس المعـادلة التي تقـول : إن كل ضعف في قوة عدوّك تمثل قوّة متقدمـة في مواقعـك السياسيـة والعسكـرية ، لا سيّـما اذا كان هـذا الضعف منطلقـاً من خـلال مـواقفك الحـاسمة . . أمّـا إذا وقفنا عـلى الحياد ، أو وقفنـا ضـد القـوى المحـاربـة في السـاحــة لنمنـع عنهــا التحـرك من أجــل الإنتصـار ، في الوقت الـذي لا نملك فيه قـوةً جاهـزةً بـديلةً من خـلال الواقـع السياسي والعسكـري الذي نعيش فيـه . . فـإننـا بذلك نعطي العدوّ قوّة جديدة عندما ندخـل في حرب مـع بعض خصـومه ، فنكـون كمن يحارب بـالنيـابـة عنـه لتـوفـير قـوّاتـه ، باضعاف القوّة المضادة لـه ـ بما في ذلـك قوتنـا التي ستضعف أمام القوى الأخرى حتى في حالة الإنتصار عليه. وهذا مما يجعل

الانتصار عليه مستقبلاً صعباً بدرجة كبيرة من خلال استعداده الجديد بحصوله على الفرصة الذهبية لتنمية قواته في فترة الإسترخاء الطويلة أو القصيرة. . .

الثاني : تحريك الإسلام في الساحة كقوة متحركة في مواجهة العدو الغاشم الذي يريد أن يقضي على الحضارة الإسلامية من الجذور الفكرية والإنسانية . . فان وقوف « المسلمين الإسلاميين » ـ إن صحّ التعبير ـ في الساحة بما يملكونه من قوى إعلامية وسياسية وإجتماعية . . يمنح القضية بُعداً إسلامياً بارزاً . ويوحي للعالم بأن الإسلام لم يتخل عن دوره الفاعل في مواجهة التحديات ، ولم يترك الساحة للتيارات الأخرى ، بل يعمل على أن يثبت وجوده في عملية حركة ونمو متصاعدة ، فينير ـ من خلال عناصر الشهادة الحيّة في وجدان أفراده ـ حالة مقارنة واعية بين طبيعة التحرك الإسلامي في الساحة وبين تحرك الآخرين . . لأن هناك فرقاً ـ أيَّ فرق ـ بين الذين يقاتلون من خلال عمق الايمان في الشهادة، وبين الذين يقاتلون من خلال شخصيات طارئة تفقد العمق والإمتداد والإيمان . . .

وهنا نقطة أخرى مهمة ـ يثيرها هؤلاء ـ وهي ، إن الحركة الإسلامية لا تستطيع أن تمارس عملية النمو خارج نطاق المعركة الحادة التي تواجه التحديات . . بل لا بد لها في سبيل استكمال شخصيتها من الإقتحام بقوة ـ على حسب امكانياتها ـ لئلا تكون

خارج نطاق التحديات فيوقعها ذلك في الأجواء الفكرية المجرّدة التي لا تملك إلاّ المزيد من التنظير المترف بعيداً عن جانب التطبيق . . إن وقوف الحركة الإسلامية العالمية الى جانب القضية مع الحركات الأخرى ، سوف يعطي القضية وجهها الإسلامي ويساهم في إعطاء الفكرة الواقعية عن طبيعة الحركية في الإسلام ، وفاعلية دوره في مواجهة الإعداء ، ويؤدي - بالتالي - إلى تقدم الخط الإسلامي على الخطوط الأخرى في نهاية المطاف ، بينما يمثل الإبتعاد عن المعركة ابتعاداً عن الهدف الكبير في قيادة الإسلام للحياة ، في حركة المرحلة ، وفي حركة الأدوار الفاصلة على صعيد الحياة .

اننا نتبنى وجهة نظر الإتجاه الأوّل . . على أساس النقاط التي أثرناها في حديثنا عن خطوطه الفكرية . . وربما نضيف إلى ذلك بعض الملاحظات .

١ - أن ابتعاد الإسلام عن نصرة القضية ، بحجة أنّها تلبس ثوباً غير إسلامي ، وأن الإسلام لا يملك في هذه المرحلة قوة منظمة في حجم التحدي الذي تفرضه المعركة ، إن هذا يجعل المسلمين الذين لا يزالون يعيشون العقيدة الإسلامية من هؤلاء المضطهدين المشرّدين ، يشعرون باليأس من قدرة الإسلام على تحقيق الحل العملي لمشاكلهم ، بينما يقوم الآخرون بحل هذه المشاكل أو بالسعي لذلك على أقلّ التقادير

والفـروض . وهـذا ممـا يضعف من قيمـة الإســلام في نفـوسهم ويقوي جانب الكفـر والإنحراف في أفكـارهم ، ويفقدنـا بالتـالي قوة إسلامية لا يُستهان بها في عملية صنع الوجود الإسلامي .

٢ ـ إن مشاركة الإسلام في المعركة بقواه ، وتجـديد شعـاراته التي ابتعـدت عن الفاعليـة من خلال إهمـالها الـطويـل ، وإثـارة العـواطف الـدينيــة لـدى المسلمــين . . . يحـرج الفئـات غـير الإسلامية ويضطرها إلى افسـاح المجال للشعـارات الإسلاميـة أن تتحـرك في المعركـة بقوة وفـاعلية من أجـل أن تحقق دفعاً جـديداً للقضيــة مما يسهّـل لها عمليـة الإنتصار أو التقـدم . . لا سيّما أن هـذه الفئات تعمـل على أن تـأخـذ شهـادةً مـرحليـة بـإسـلاميـة التحرك ، من دون أن تعطيه طابعاً إسلامياً . .

ونضيف إلى ذلــك أن هنـاك من العــاملين في حقـل هــذه القضـايا ـ وفي مقـدمتها القضيـة الفلسطينيـة ـ ممن اتخذوا الإتجـاه القـومي أو الماركسي شعـار التحـرك ، كـانـوا يحـاولـون بـذلـك استقطاب الفئات القومية والمـاركسية بـاعتبارهـا العناصـر الفاعلة في المنـطقة ممـا يهيء له القـوة المسـانـدة للقضيــة . ظنـاً منهم أن الإسلام لا يشكل تيـاراً سياسيـاً قويـاً في الساحـة ، بل لا يـزيد على التأثـير العاطفي الـروحي الذي لا يمثـل أية قـوة عملية . . . فـاذا رأى هؤلاء في الحركـة الإسلاميـة تياراً جـديداً يمثـل الحجم الكبــير من القـوة فـإنهم قـد يبــدأون في التعـاطف والتعــامـل والتعـايش معه عـلى أساس مـا يطرأ لـديهم من أوضـاع جـديـدة

تـوحي لهم بحسابـات جديـدة . . مما يحقق للحـركة الإسـلاميـة نقلة متقدمة الى الأمام .

٣ ـ إننا نستوحي من الحـديث الشريف المـأثور عن الصـادق (عليـه السـلام): « مـن لم يهتـم بـأمـور المسـلمـين فليس بمسلم »[١] أو الحـديث المعروف عن الـرسـول (صـلى الله عليـه وآله وسلم) : « من سمع رجـلاً ينادي يـا للمسلمين فلم يجبـه فليس بمسلم »[٢] إن الحـد الذي يجعـل من هذه القضيـة أو تلك قضيـة إسـلاميـة هـو أن تكـون القضيـة ممثلة لمشـاكـل المسلمـين وآلامهم في عمق وجـودهم الإنساني مـع الآخرين . . مما يـوحي لنا بأن القضيـة تـدخـل في العمق ولا تقف عنـد الإطـار فليس ميـزان المسؤولية هنـا هو الثـوب الذي تلبسـه القضية بـل الميزان هو طبيعة القضية في ذاتها وفي أبعـادها الممتـدة في حياة المسلمـين بحيث يكـون الإهتمام بهـا مصداقـاً للإهتمـام بمـا هـو من أمـور المسلمين في شؤون حياتهم العـامة والخـاصة . فـإذا توقف انقـاذ المسلمين أو أرض المسلمين من ظلم كـافر أو طـاغية بـالإستعانـة بكافر آخـر ، لوجب ذلـك ، فيما اذا لم تكن هنـاك مفاسـد كبيرة تحـوّل مقياس الأمـور وميـزانها الى اتجـاه آخـر . . اننـا نفهم من وحي هـذا الحديث . . أن القضيـة الحاسمـة . . هي أن عليـك ـ كمسلم ـ أن تعيش الإهتمـام بـأمـور المسلمـين من خـلال مـا

---

(١) ـ الوسائل ج/١١ ص ٥٥٩ باب ١٨ من أبواب فعل المعروف ح/١ .
(٢) ـ الوسائل ج/١١ ص ٥٦٠ باب ١٨ من أبواب فعل المعروف ح/٣ .

تملكه من طاقات ذاتية وليس عليك أن تمنع الآخرين من ممارسة دورهم في خدمة هذه القضايا ، ما دمتِ ـ أنت ـ ستعمل على تحريك النصر ليقف مع الخط الإسلامي في نهاية المطاف .

٤ ـ إن الحديث عن القضية التي تقول ، بأن خدمة أيّة قضية محكومة « لشعار معين يعني خدمة ذلك الشعار » هو حديث خاطيء ، لأن بامكان الذين يخدمون القضايا العامة أن يمارسوا الحركة في الإطار الذي يريدونه لها فيكون ذلك نفياً عملياً للشعار الذي وضعت فيه القضيةِ بطريقةٍ عملية ، ومن خلال هذه الفكرة نخلص إلى فكرة أخرى ، وهي إن التفكير بأن قوتنا في الساحة تتحقق من خلال ضعف الآخرين هو تفكير لا يسير في الإتجاه الصحيح ، بل الخط الصحيح في هذا المجال هو أن قوتنا تتحقق بالعناصر التي تساهم في صنع القوة فبذلك نشارك في اضعاف الآخرين بقوتنا الوليدة الى جانب الأمور الأخرى التي تشارك في اضعاف مواقفهم العملية في الحياة . .

الصوم السياسي في رمضان

الصوم السياسي في رمضان

في بـداية كـل شهر من شهـور رمضان الممتـدة مـع السنـين تتحـــرك الأقـلام لتكتب الكثـير من فـوائـد الصـــوم وأســـراره ومنطلقاتـه ، وتتدفق الحنـاجر في خـطابات ومـواعظ تتحدث عن عظمة هذا الشهر وما أمد الله فيـه للمؤمنين من ثـوابه ورضـوانه وفيوضات رحمتـه . . ويتنادى المؤمنـون الى الأخذ بـأسباب ذلـك فيما يؤدونه من فريضة الصـوم ، وفيما يتعبـدون فيه لله من صـلاة ودعـاء وأعمال روحيـة وتبقى للقضية مـلامحها ونتـائجها الفـردية على مستوى الإلتزام العملي ، والإنفتاح الروحي ، فتلمح بعض الإنضباط هنا في فعـل بعض الواجبـات التي كان المكلف مقصراً فيهـا ، أو في تـرك بعض المحـرمـات التي كـان يفعلهـا ، وتجـد بعض التجليّـات الروحيـة في داخل ضمـير هذا الإنسـان أو ذاك في بعض الإنطلاقات الذاتية الخـاشعة . ولكن لا نجـد تغييراً في الواقع الحياتي ، المتمثل بالخطوات العملية إزاء المواقف السياسية والإقتصادية والإجتماعية . . أمـا السبب في ذلك فقـد يكون هـو

الجوّ الضيق الذي تعيش فيه هذه الفريضة في داخل حياة الإنسان وضميره ، سواء في ذلك النظرة الجامدة التي تؤكد على الجانب المادي للصوم في الشكل والممارسة ، أو الإيحاء الداخلي باعتبار رضا الله غاية للعمل في نطاقه المحدود في دائرة الشروط والأحكام . . حتى الدعاء الذي يمثل المناجاة الروحية المتصاعدة من أعماق الإنسان في سبحات القدس ، وروحانية المعرفة . . . حتى هذا الدعاء ، لا نلمح فيه الا الكلمات المتلاحقة التي يبحث أولها عن آخرها في سرعة لاهثة على أبواب الختام . . إنه مجرد كلمات وطريقة فنية من طرق الخشوع الفني الذي يتمثل في النغمة قبل أن يتجسد في المعنى . .

غاية الصوم التقوى:

انا في هذه الكلمة لا نريد اثارة هذا الجانب من ممارستنا للصوم في عملية تحليل ومحاكمة . ولكننا نريد أن نستوحي من تشريع الصوم فكرة شاملة تتجاوزه الى الحياة كلها، ومن ثم نتوقف عند اتجاه عملي في حركة الصوم في الحياة كلها من خلال حركة الفكرة في مسار الإنسان الطويل . . ففي الآية الكريمة التي تحدثت عن تشريع الصوم يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[1] . . فإننا نجد الغاية التي تحكم

(١) ـ البقرة الآية ١٨٣ .

الصوم هي التقوى . . باعتبار أن الصوم هو أحد الوسائل العملية له . . واذا وقفنا امام التقوى فسنجد المفهوم العملي المتمثل بالالتزام بالخط والإصرار على الموقف والإنضباط في الممارسة في مواجهة التحديات والعقبات والصعوبات القائمة في الطريق . . فلا بد للإنسان الصائم الجاد في صومه من أن يحصل على التقوى في نفسه وفي عمله ليشعر بأنه قد أعطى صومه معنى روحياً يتصل بالغاية ويرتبط بالهدف . . والتقوى ليس مجرد حالة ذاتية تتحدد بالجانب العبادي للإنسان بل هو انطلاقة ايمانية ، وحركية اسلامية تشمل الخط كله ، والممارسة كلها . وبذلك تلتقي التقوى في العبادة بالتقوى في المعاملة . . وتمتد في السلوك الإنساني لتفسح المجال لأنواع جديدة في المجال العام للإنسان فتحصل لنا في هذا الإتجاه التقوى في السياسة وفي الإجتماع وفي الاقتصاد وفي الحرب وفي السلم . . .

وفي ضوء ذلك كله ، نجد أن التقوى في أي موقع من مواقعها تفرض على الإنسان لوناً من ألوان الصوم الداخلي والخارجي لأنها تمثل الإنضباط أمام التحديات والإغراءات والشهوات والمخاوف ، فتستتبع بعضاً من الحرمان من كل عوامل الإثارة ، وحذراً من كل عناصر الإنحراف مما يجعل من قضية الصوم الجسدي الذي فرض على الإنسان في شهر رمضان ، مجرد نموذج للإرادة القوية التي تحمل الرفض لكل ما لا يريده الله ، من أجل التقرب الى الله ، لتتنوع بعد ذلك

النماذج الحية التي تتسع لكل انواع الحياة . . وفي هذا المجال نلتقي بالصوم السياسي الذي نريد أن نتوقف أمامه في هذا الحديث . . .

فما هو مدلول الصوم السياسي ، وما حدوده ؟ .

إن الصوم السياسي ، فيما نقصد ، هو الكف عن جميع الأفكار والأعمال التي تفقد الإنسان حريته مع الظالمين والمفسدين والكافرين والإبتعاد عن أولياء الله وعباده الصالحين ، وتثير في بلاد الله وعباده الفتنة والبغضاء والفوضى والفساد والفرقة والخصام . . الى غير ذلك مما يسيء إلى الحياة وأبناء الحياة .

ويتمثل ذلك في عدة نقاط :

١ ـ أن يعيش في نفسه الرفض القلبي للظلم بكل انواعه ، لأن من أولى مراتب الظلم هو التعاطف مع الظالم والرضا بعمله ، ولذلك اعتبر الراضي بعمل قوم كالداخل فيه معهم ، حتى ان الداخل في العمل يتحمل مسؤولية العمل ومسؤولية الرضا به كما ورد في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « واعتبر الإنكار القلبي للمنكر من أضعف الإيمان »[1] . . وربما استوحينا من مجموع هذه الأحاديث أن

---

(١) ـ مستدرك الوسائل ج/٢ ص ٣٦١ باب ٣ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبها ح/٧ عن الرسول .

الإسـلام يـريـد أن يبـدأ في حمـايـة الإنسـان من الشـر ، من الـداخل ، لأن الشـر يبدأ فكـرة وعـاطفـةً ثم يتحـول الى عمـل ومـوقف ، فلا يكفي أن تهـاجم العمل وتمنعـه بل لا بـد لك من أن تقتحم الـداخـل لتقتلع جـذوره في الفكـر والشعـور . . وفي ضوء هذا جاء الحديث الشريف : « إنما الأعمـال بالنيـات ولكل امريء ما نـوى »[1] والحديث الآخـر « يحشر النـاس على نيـاتهم يوم القيامة »[2] وانطلقت التوجيهات الـدينية التي تحـارب الريـاء وتدعو الى الإخـلاص في النية كـأسلوب من أساليب الإخـلاص في العمـل . . ثم تتـحـدث عن الحـب في الله والبـغض في الله لتنتهي الى النتيجة القائلة « المرء مع من أحب . . . »[3] .

٢ ـ ان يـرفض التعاون الفعـلي مع الـظالم لأن المعـين للظالم شـريك لـه في ظلمه ، فـلا بـد لـلإنسـان من التحـرر من ذلـك كـوسيلةٍ من وسائـل تحريـر الحياة من الـظلم والـظالمين ، ومنـع الناس من اعطاء قوة جديدة للظلم .

٣ ـ ان يعيش الـوعي السياسي الـذي يجعله واعياً لمـا حولـه من قضـايـا وحـركـات ليعـرف مـوطن قـدمـه في حـركـة الحق والباطل ، والظلم والعدل ، لئـلا يلتبس عليه الأمـر فيرفض من لا يستحق الـرفض ويؤيـد من لا يستحق التـأييـد ويتقـدم وهـو

(١) ـ الوسائل ج/١ ص ٣٥ باب ٥ من أبواب مقدمة العبادات ح/١٠ .
(٢) ـ الوسائل ج/١ ص ٣٥ باب ٥ من أبواب مقدمة العبادات ح/٥ .
(٣) ـ أمالي الطوسي ص ٦٣٢ سطر ١٤ .

يزعم لنفسه أنـه يتأخـر وبالعكس فيضـر من حيث يريـد أن ينفع ويقـع في قبضة الخـداع السياسي الـذي يستغل طهـر الساذجـين وسـذاجة الـطاهرين لأنهم لا ينفـذون الى واقع الأمـور من جهـة ولا يفكـرون بأسـاليب اللف والدوران التي يتقنهـا الآخـرون من جهةٍ أخرى لأنهم يعتقـدون الصحة في نـوايا الآخـرين وخطواتهم العملية في الحياة . . ولا يتعلمون من تجاربهم السلبية في حياتهم العـامـة والخـاصـة . . وقـد ورد في بعض الأحـاديث المـأثـورة : «لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين »[1] .

٤ ـ ان يواجه الحياة من مواقـع القناعـة الذاتيـة فيما يستقبـل من شهـوات الحياة ولـذائذهـا واطماعهـا ، فلا يستسلم لـلإغراء المـادي والمعنوي ليتـرك موقفـاً يفرض عليـه الله ان يتبناه أو ليتبنى مـوقفاً يـريد منـه الله ان يتركـه ، فيبيع آخـرته بـدنيـاه أو بـدنيـا غيره . . .

وينحرف عن خط المسؤولية فيما يحبه الله ويـرضاه . . ويقـع في المـزالق السياسيـة التي تساهم في خـراب البلاد والعبـاد ، كـما نلاحظه في الكثيرين الذين يسبحـون بحمد الـظالم ويقدسـون له ويخشعـون لسطوته نـظراً الى انهم يحصلون عـلى شيء من دنياه فيما يحصلون عليه من مال أو فيما ينطلقـون فيه من جاه او شهـوة . . وقد تحـدث الله عن هؤلاء في كتابـه واعتبـرهم ممن

(١) ـ الأمثال النبوية ج/٢ ص ١٢٢ ح/٤٣٧ .

باعوا انفسهم بثمن بخس ، بينما اعتبر الذين يبيعون انفسهم لله وللحق من الرابحين في تجارتهم والقريبين الى الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة .

إن الإسلام يريد للإنسان ان يعيش الإحساس بالإكتفاء والغنى النفسي أمام كل حاجة من حاجات الدنيا التي لا تمثل ضرورة من ضرورات الحياة بحيث يملك في داخل نفسه ارادة الرفض ، بكل ما يستتبعه الرفض من حرمان وألم ، فيما اذا اقتضت مبادؤه ان يواجه حالة الحرمان بالإصرار على المبادىء . . وبذلك كان الطمع يمثل الفقر الأكبر بينما تمثل القناعة الغنى الحاضر والمال الذي لا ينفد . . . وفي ضوء ذلك يمكن للأفراد والجماعات أن تتحمل الضغوط الإقتصادية التي يمكن أن توجهها ضدها الفئات الكافرة والمستعمرة في بعض الأزمات السياسية والإقتصادية لتحطم مقاومتها وصمودها أمام قضاياها المصيرية ومواقفها الإستقلالية الحاسمة . فإن الإنتصار على النفس في مثل هذه الحالات قد يمثل الإنتصار على القوى الغاشمة فيما تريده من السيطرة على مقدرات الأمم والشعوب ، وتحويلها الى مجموعة ادوات استهلاكية مشلولة تابعة . . وقد يتمثل الموقف في ممارسة الأمة سياسية الضغط على تلك القوى وذلك بمقاطعة منتوجاتها الإستهلاكية لا سيما الأشياء التي تدخل في حساب الترف والكماليات مما يدفع اليه المزاج والعادة التي لا تلتقي بضرورة حياتية . فإن الضغط الإقتصادي قد يدفع

تلك القوى الى التراجع في سياساتها أو في مواقفها أو شروطها الإقتصادية ، وقد رأينا كيف استطاع الشعب الإيراني المسلم أن ينتصر على الشركات الإحتكارية الأجنبية عندما استجاب لتحريم التبغ والتنباك الصادر من المرجع الديني السيد محمد حسن الشيرازي ، في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، فكانت المقاطعة الشاملة التي دعت الشركة الى التراجع عن مخططاتها الإستعمارية البعيدة المدى . وقد يتمثل ذلك في اصرار الأمة على تشجيع المنتجات المحلية بالإقبال عليها ورفض المنتجات الأجنبية بالرغم من رداءة البضائع المحلية وذلك من أجل افساح المجال للنمو الإقتصادي الصناعي وتطوير الإقتصاد بشكل تدريجي ، بعيداً عن ضغوط المنافسة الأجنبية غير المتكافئة ، وقد عرفنا بعض النماذج المؤمنة في تاريخنا القريب ممن كان يصر على لبس الثياب المصنوعة في بلاد اسلامية ، بدلاً من الثياب المستوردة من بلادٍ غير اسلامية ، بالرغم من جودة هذه ورداءة تلك . . وهكذا نجد ان من الممكن للأمة في ممارستها لهذا الصوم الإقتصادي الذي يكلفها بعض الحرمان في حساب النوازع النفسية والمزاج الذاتي ، ان تتغلب على الكثير من الأزمات الداخلية والضغوط الخارجية كأسلوب من أساليب التأكيد على الشخصية المستقلة التي تملك ارادة صنع القرار وتنفيذه .

إن القضية التي تفرض نفسها على الموقف هي أن تكون

الأمـة مستعـدة لمـواجهـة الضغط بـالارادة القـويـة ، والـرد عـلى الضغط بضغط مثله أو أقوى منه انطلاقاً من موقع الإنتصار على النفس الـذي يدفـع الى الإنتصار عـلى الآخـرين الـذين يعلنـون الحرب الغذائية أو غيرها . . وقد عـاشت الأمة المسلمـة في ايران تجـربة اسـلامية رائـدة في الصوم الشعبي الـذي انـطلق ليـواجـه بعض الأزمات السياسية المعاصرة ليدلـل على أن بـامكان الشعب أن يعيش الحـرمان في بعض حـاجاتـه ليحقق الإكتفاء في قضـاياه الأساسية .

٥ ـ إن يصـوم عن الكلمـات التي قـد تتـرك بعض الآثـار السلبية على حياة الأمة في واقعهـا الداخـلي والخارجي ممـا يدخـل في حسـاب الأسرار السيـاسية أو الإقتصـادية أو الإجتمـاعية فيـما يمكن للأعداء أن يستغلوه في تهـديم البناء المتمـاسك لـلأمة ، أو ممـا يدخـل في نطاق الإشـاعات في مجـال الخـوف والأمن ، أو في مجـال القضايـا المتصلة بكرامـة الأشخـاص أو الفئـات التي تمثـل مركزاً قيادياً في الأمـة ، أو في غير ذلـك من الأمور الحسـاسة التي يمكن أن تخلق جواً من الإثارة والحساسية والتوتر في غير مصلحة الأمـة . . فقـد يـدعـو الى ذلـك كله الفضـول الـذاتي أو شهـوة الكلام لا سيما في نـدوات الفراغ التي تـوحي بالمـزيد من الكـلام من دون أن يكـون هنـاك أي هــدف كبـير في مضمـــون الكـلام وطبيعته . . وقد نشعر بالحـاجة الى التغلب عـلى ذلك المـزاج من أجـل ان نتفادى السلبيـات المتنوعـة في مثل هـذه الأمـور ، وقـد

تحدث القرآن كثيراً عن الذين يذيعون ما جاءهم من أمور الخوف والأمن واراد منهم أن يردوه الى أهله قبل أن يفيضوا به في حياة الناس العامة ، كما تحدث عن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وتوعدهم بالعذاب الأليم . وقد حفلت الأحاديث النبوية وكلمات الأئمة الطاهرين بالكثير من التأكيد على مسؤولية الكلمة ، وعلى قيمة الصمت في المواقف الحاسمة ، مما أريد فيه أن يتحقق للإنسان الإنضباط الواعي فيما يريد أن يفيض فيه من كلام أو فيما يجب أن يثيره من فضول الحديث وجدّه وهزله . .

وقد نشعر بالحاجة الى الصوم عن الكلمات غير المسؤولة التي تكون مدحاً لظالم أو تزييفاً لحقيقة ، أو تهديداً للأمة ، أو بعثرة للجهود . أو اثارة لليأس ، أو دعوة للفتنة . أو تحطيماً للروح المعنوية أو غير ذلك مما يدخل في حساب الواقع السلبي الذي يحوّل الأمة الى مِزَقٍ متناثرة أو طاقات مشلولة أو أوضاع مضطربة أو اردات ضعيفة ، أو خطوات مبعثرة ضائعة . فإن ذلك يؤدي بها الى الخراب والدمار والضياع والوقوع في قبضة الكفر والإستعمار ، والإنسحاق أمام قوى العبودية والطغيان مما لا يحبه الله ورسوله وقد جاءت الأحاديث الكثيرة التي تتحدث عمن يمدحون الظالم أو يعذرونه أو يثيرون الفتنة أو يزيفون الحقيقة وتتوعدهم بالمصير الأليم عند الله سبحانه وتعالى وادعوهم الى التوبة عن ذلك كله وقد لا ننسى أن الأديان قد

شرعت في الماضي صوم الصمت فيما حكاه الله عن زكريا ومريم في قوله تعالى : ﴿ **فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلّم اليوم إنسياً** ﴾[1] .

٦ ـ ان تصوم الأمة عن الكثير من التحالفات السياسية والعسكرية التي تسيء الى عزتها وكرامتها واستقلالها أو تفقدها الكثير من خصائصها الفكرية والروحية والحضارية ، فان الأحلاف تمثل في حساب أطرافها ـ لوناً من ألوان الحصول على قوة جديدة ، فلا بد لها ـ في هذا النطاق ـ من أن تضمن القوة لأطرافها فيما تمثله من خصائصها الأساسية التي تفقد الأمة ذاتها ومعناها عندما تفقدها ، وتتحول الى مجرد ظل للشخصيات الطارئة من دون لون أو معنى . وبذلك يتحول التحالف الى عنصر اضعاف واستغلال بدلا من أن يكون عنصر قوة واستقلال وفي هذا الإتجاه . . قد نجد من الضروري أن نشعر بالحاجة الى الإعلان عن الشخصية الحقيقية التي تمثلها الأمة وعدم الإنسياق وراء الشخصيات الأخرى تحت تأثير الخوف من سلبيات الشخصية الأصيلة في حركة المجتمع لأن ذلك قد يقود الى فقدان الشخصية وضياع الموقف بحجة الحفاظ عليها . وربما يلاحظ المتتبع للأساليب المشبوهة أنها تؤكد على تخويف الإتجاهات الإسلامية الأصيلة من طرح الفكر الإسلامي خوفاً

---

(١) ـ مريم الآية ٢٦ .

من خلق أجواء طائفية ليست في مصلحة الأمة . . لتجعل ذلك سبيلاً الى الإنسحاب من الصفة الإسلامية للتحرك والإيحاء بصفةٍ جديدةٍ غريبة عن الإسلام كأسلوب من أساليب المرونة العملية لتنتهي القضية بالإنسحاب من الطابع الإسلامي كلياً من حيث تريد أو من حيث لا تريد . . إننا نشعر بخطورة ذلك كله على المسار الإسلامي للعمل لأن التخويف من السلبيات لا يخوف العاملين للهدف الكبير في نطاق الخطة ، بل يخوف العاملين في نطاق الشعارات العاطفية التي تستعير ثقتها بنفسها من حركة الواقع ، لا من حركتها في تغيير الواقع ، فان الذين يعملون على التغيير يعرفون كيف يتعاملون مع السلبيات بالأسلوب الذي تتحول فيه الى ايجابيات أو لا تتحول فيه الى خطر على الواقع ـ على الأقل ـ .

٧ ـ أن تصوم الأمة عن الإنفعالات النفسية في مواجهتها للأحداث والتحديات ، لأن الإنفعال يفقد الإنسان وضوح الرؤ ية وسلامة الحكم على الأشياء لأن معنى حركة الإنفعال غياب العقل ، وإذا غاب العقل دبت الفوضى وتحركت المسيرة في اتجاه الضلال . . ولعل القيمة في هذا الصوم أنه يمنع الكثير من التفجيرات السياسية والعسكرية التي يفجرها اعداء الأمة في الساحة انطلاقاً من عنصر الإنفعال الذي يهيء للخطة كل ما تحتاجه من أجواء الإثارة غير العقلانية مما يفوت على القيادة التحرك بحرية وانضباط وتخطيط . . وربما كان التأكيد على هذا

الجانب من الصوم السياسي . . ضرورة إسلامية في الأجواء التي تعيشها الأمة في مواجهة الأعداء الذين يتعاملون مع التخطيط الدقيق للمعارك التي يخوضونها أو يصنعونها ، الأمر الذي يتطلب دقةً في التخطيط المضاد ووعياً لكل كلمة أو حركة في هذا السبيل .

٨ ـ أن تصوم الأمة عن الخلافات الجانبية التي تهزم صمودها وتدمر قوتها وتحولها الى شِيَعٍ وأحزاب وطوائف ، وتحاول في هذا الإتجاه ـ أن تتعامل مع الخلافات المطروحة في الساحة على أساس الفكر والعقل والمسؤولية ، بالبحث عن مواطن اللقاء والتركيز عليها ، وتحويل القضايا المختلف فيها ، الى قضايا فكرية تتحرك على صعيد الفكر لا على صعيد الشارع العام ، وتجميد جوانب الإثارة فيها بالكف عن طعن المقدسات والإبتعاد عن الكلمات المثيرة المحمّلة بالعاطفة . ليتحول الخلاف الى عنصر اثارة للفكر والتأمل بدلاً من أن يكون عنصر اثارة للإنفعال والإرتجال . . فان الأمة التي تتعامل مع خلافاتها من موقع المسؤولية الفكرية سوف تجعل من الخلافات عنصر غنى لا عنصر فقر . ومنطلق لقاء لا منطلق افتراق .

تلك هي بعض ملامح الصوم السياسي الذي يستهدف تقوية الفرص السياسية والعسكرية والإجتماعية التي تساهم في اقامة العدل وازهاق الظلم وتقوية قواعد العزة والإستقلال لدى الأمة ، وابعادها عن كل عوامل الضعف والإنهيار والضياع . .

وقـد يلتقي الباحثـون بملامـح أخرى فيـها يراد لـلأمـة ان يكـون عنصـراً فاعـلاً في اتجاه صنـع الخير وإزالـة الشّر ليكـون لـه دوره الإيجابي في حياة الأمـة فتتجمع الـطاقات القـوية لتصب في النهـر الكبـير من حـاضـر الأمـة ومستقبلهـا ، فنتخلص من النمـاذج السلبية التي تريد أن تتبعد عن المعـركة من خـلال اثارة سلبيـات المعـركة من دون أي جهـد في تحويـل السلبيات الى ايجـابيـات ، وفي تنمية الإيجابيات لتنطلق في حيوية أكبر وفاعلية اوسع . . .

ان مـا نفهمه من تشـريع الصـوم في الإسلام هـو انه تجـربة انسـانية لـلإرادة القويـة المنـطلقـة من خـوف الله ومحبتـه ليكـون الصـوم الصغير المتمثـل في صـوم شهـر رمضـان مقـدمـة للصـوم الكبـير على مستـوى الحيـاة ، وهـذا هـو مـا أكـدت عليـه كلمـة التقـوي في اعتبارهـا هـدفـا للصـوم . وهـذا هـو مـا حفلت بـه الكلمات المأثـورة عن النبي محمد (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) وأهل بيته (عليهم السـلام) . وهذا هـو ما نحتـاجه في مسيـرتنا الطويلة من أجل أن تكـون كلمة الله هي العليـا وكلمة الشيـطان هي السفـلى ، ومن أجـل أن تعم كلمـة الإسـلام العـالم ليعيش الإنسان الحضارة والسلام من خلال شريعة الإسلام .

الثورة الاسلامية دروس وعبر

الثورة الاسلامية دروس وعبر

للحديث عن الثورة الإسلامية في حياتنا طعمُ الحلم الكبير الذي عشنا العمر من أجله ، فكيف بنا ونحن نشاهده يطبع خطواته على الدرب . . ولكننا لا نريد أن نتحدث عنه بلغة الخيال والحلم ، بل من حركة الحلم في الواقع في عملية تأمل وتقويم . . فقد انطلقت الخطوات العملية لتطرح الفكرة من خلال الشعار ، وتحرّك الشعار في مشاعر الأمة فتحولت الأمة من خلال ذلك الفكر والشعور الى طاقة تتحفز لتفجر الواقع من خلال الإسلام في كلمات الله ووحيه .

اننا هنا من أجل أن نتعلّم ونأخذ العبرة لأنها تمثل التجربة الإسلامية الرائدة في الواقع المعاصر فقد مرّ زمان طويل انطلق فيه المتفلسفون ، يفلسفون فيه الإسلام في نطاق المفهوم الديني على الطريقة الأوروبية ، فهو لا يزيد عن أن يكون عبادات وطقوساً تقليدية وأخلاقيات مثالية قد تمنح الراحة للفرد وللمجتمع من ناحيةٍ روحية ، ولكنها لا تستطيع أن تمنحه

القاعدة الثابتة التي تتحرك منها قضايا الحكم والسياسة والاقتصاد والإجتماع . . وبدأ بعض هؤلاء يطرح فكرة الحكم في الإسلام ، كفكرة لا أساس لها في المصادر الإسلامية ،ويرى من خلال ذلك ، انه لا معنى للتحرك على أساس فكرة الدولة كإطار وتشريع وتخطيط للاقتصاد وللسياسة والإجتماع ولغير ذلك مما تحتاجه الحياة في مسيرتها المتقدمة الى الأمام ، ووقف المفكرون الإسلاميون يطرحون الفكرة الإسلامية التي تدعو الى الإسلام كنظام متكامل لا يترك جانباً من جوانب الحياة إلّا ولله فيه حكم وتشريع ومفهوم ، وتحركت التيارات الإسلامية لتفرض هذا الفكر على الواقع من خلال المعاناة والممارسة العملية الدامية في نطاق الجهاد ، وانطلق الصراع في كل اتجاه يقدّم الشهداء في كل مكان في أكثر من موقع ، ولكن الفكرة بقيت في جو الفكرة ، والتحرك المحدود الذي لا يزال يفتش في الأفق عن أرض صلبة يقف عليها الواقفون ويجاهد من قاعدتها المجاهدون . . وجاءت الثورة الإسلامية كالزلزال لتلغي كل ما استحدثه الصراع من أساليب الرفض والتأييد لتجسد الفكرة ، كواقع حيّ . . إنه الإسلام يتقدم يحكم بمفاهيمه وتشريعاته ووسائله وأهدافه ، وبذلك عاد الحكم الإسلامي حقيقة ، بعد أن كان مجرّد حلم فكرةٍ ، أو فكرة تعيش في متاهات الأحلام فماذا نستوحي من ذلك ؟ .

اننا نريد أن نثير في هذا الحديث عدة نقاط ، نحاول من

خلالها استجلاء بعض جوانب الواقع من خلال حركة هذه الثورة :

الأسلوب الجديد في التحرك الإسلامي:

إن الثورة الاسلامية ايرانية طرحت أسلوباً جديداً في التحرك الإسلامي من أجل الوصول الى الهدف ، فقد انطلقت من واقع الحياة الإسلامية الممتدة في كل قطاعات الأمة فلم تحبس نفسها في نطاق طبقة معينة أو فئة خاصة بل كانت ثورة كل المستضعفين في الأمة ، سواء منهم الذين عاشوا الإستضعاف في لقمة العيش . أو الذين عاشوا الإستضعاف في الواقع السياسي ، والتربوي والإقتصادي ، ووقعوا في قبضة الإضطهاد الإمبراطوري الذي عمل على إبعاد الأمة عن عقيدتها وتاريخها الإسلامي وهويتها الإسلامية بمختلف الأساليب التعسفية والتحريفية ، وبذلك استطاعت أن تبعد كل الشخصيات المصطنعة عن شخصية الثورة وطرحت كل الفلسفات التي كانت تحبس الفكر الثوري في قوالت معينة تريد أن تفرضها على الواقع فجاءت هذه الثورة الإسلامية لتحطّم أسوار الواقع بأساليب جديدة لا تخضع لأي مصطلح من هذه المصطلحات المألوفة لدى الثوريين الآخرين ، وبذلك استطاعت أن تعطي لنفسها هويتها الحقيقية المنطلقة من تحريك المصطلح القرآني في واقع الناس كدليل على واقعية المصطلحيات القرآنية ومرونتها العملية ، فكانت حدثاً جديداً في تاريخ الثورة .

أسباب انتصار الثورة الإسلامية :

إن الثورة الاسلامية تحركت في البداية من موقع الهدف المرحلي المحدّد وهو إسقاط نظام الشاه على أساس الشعارات الإسلامية ، لتحقق من ذلك هدفين ، أحدهما : تربية القاعدة المسلمة على أن تتحرك في اتجاه الثورة من خلال المشكلة العميقة التي تلامس أعماق الأمة في مشاعرها القلقة ، ثانيهما : تجميع الفئات الأخرى التي انفصلت عن جو التفكير الإسلامي بالسير مع الخطوط الأخرى للتفكير بحجة أن الواقع الديني لا يحقق اهداف الجماهير في الحرية والاستقلال والعدالة ، الذي يجعل من التفافها حول الشعار الإسلامي في تغيير الواقع أساساً لتبديل مسار التفكير لديهم من موقع الساحة المتحركة في خط الإسلام .

وفي هذا الجو بدأت عملية تفجير الحس الثوري لدى الإنسان المسلم في الداخل ، بالأسلوب العملي البسيط . فلم تخض معه الأحاديث النظرية التي تطرح الفكر ونقيضه لتقوم بعملية التوازن بعد ذلك فتصل من خلاله الى تحديد الموقف ، كما تفعل بعض الحركات الثورية السياسية التي تغرق الناس بالنظريات المعقدة التي تقود الذهن الى ساحة تختلط فيها المعميات والألغاز النظرية التي تبعد الإنسان عن الوضوح في الرؤ ية والصفاء في الشعور . . لأن مثل هذا الأسلوب قد يُعطّل التحرك عن قوة الإندفاع الشعوري الذي يحرك الواقع .

وقد يفسح المجال لصراعات نظرية في سائر مجالات العمل مما قد يؤدي الى الدخول في متاهات تجريدية من قضايا النظرية والتطبيق .

لقد رفضت قيادة الثورة هذا الأسلوب النظري وفضلت الأسلوب الذي يتخذ من واقع الممارسة والمعاناة أساساً لطرح النظرية من خلال حركتها في الواقع التطبيقي ، وتوجيه الأمة الى استذكار مفاهيم الإسلام في الظلم والعدل والطغيان والتغيير في عمق الظلم الذي يعيشونه في داخل حياتهم اليومية ، وفي وحشية الطغيان الذي يجثم بثقله على كل مقدرات الأمة ليكون ذلك التصور للظلم والطغيان منطلقاً للتصور البديل عن ذلك في تغيير الواقع على أساس من العدل . بعيداً عن كل النظريات الفلسفية حول تلك المفاهيم ومن الطبيعي أن هناك فرقاً بين أن تطرح المفهوم من خلال الواقع وبين أن تطرح الواقع من خلال المفهوم ، فإن الأول يلامس الإحساس بينما يتصل الثاني بالتصور .

وقد ساهم ذلك في وجود جوٍّ جديد لاستنطاق الآيات القرآنية الكريمة في كل موقع من مواقع الجهاد ضد الظلم ، وفي طرح الشعارات الإسلامية الأساسية كشعار « الله أكبر » لتحمل في داخلها كل الإنفعالات والمشاعر والأفكار والتحديات المطروحة على صعيد الواقع المعاش للناس ، الأمر الذي يساهم في تحويل تلك الآيات والشعارات الى طاقة تنفجر داخل

الإنسان لتفجر الثورة من حوله ، وكان لجمهور الثورة قوته الروحية المندفعة الممتدة التي جعلته ملتصقاً بمفاهيمه الدينية المرتبطة بالشعارات ، مما جعل التيارات الأخرى تتجمع حولها من أجل ان تركب الموجة أو تقودها ، وسارت الثورة معها في عملية وعي وحذرٍ حتى اذا استطاعت أن تستوعب كل الساحة وقفت أمام تلك التيارات في موقف حاسم لا يبتعد عن المرونة العملية ، فهو في الوقت الذي لا يمنع تلك التيارات أن تتحرك معه في الساحة كان يعمل على أن يحدد الفواصل الفكرية والعملية التي تفصل الحركة الإسلامية عن غيرها لتتحدد هوية الحركة من ناحية فكرية وسياسية في مستوى الأسلوب وفي طبيعة الحركة وفي ضوء ذلك كان الصراع الذي تخوضه الحركة الإسلامية ضد التيارات المنحرفة أو اللاإسلامية لا يؤخر سير المعركة ضد الظلم والطغيان .

وبدا الهدف المرحلي يغري القوى المضادّة أن تقوم بحركة التفافٍ ضد الثورة من داخل الهدف من أجل تفريغها من قوة الإندفاع الشعبية فطرحت فكرة البديل عن الشاه مع إبقاء طبيعة النظام الإمبراطوري ، وانطلقت الدول الإستعمارية لتبارك هذا الهدف الذي يحوّل الموقف الى انقلاب عادي يستجيب لرغبات الإستعمار في تغيير الوجوه التي استهلكها الزمن وتجاوزتها الأوضاع . . ولكن الثورة في أشد الظروف قساوةً حتى بدأ أصدقاؤها يشكّون في حكمة القيادة وواقعيتها وفي مدى وعيها للظروف العالمية والداخلية المحيطة بالهدف ،

وبدأ الشعار الذي فرض نفسه من خلال الهدف المرحلي الجديد وهو اسقاط النظام الملكي بالكامل بكل مظاهره ، حتى ان قيادة الثورة رفضت الإجتماع بأي مسؤول من النظام إلا بعد اعلان براءته واستقالته منه وهكذا فرضت الثورة نفسها على العالم وحققت الهدف المرحلي الجديد وسقط النظام الملكي ، وبدأ الكثيرون من أصحاب التيارات المنحرفة غير الإسلامية يعملون على تطويق الثورة الإسلامية بمختلف أساليب اللفّ والدوران بطرح فكرة الديمقراطية كصفةٍ للإسلام تارةً ، وبالتحدث عن حرية الشعب في اختيار النظام الذي يمثل الإسلام أو غيره ، وثارت الضوضاء من كل جانب ، وتحركت هيئات الدفاع عن الحريات في العالم وبدأ الاستعمار يلبس قناع الدفاع عن حقوق الإنسان وعن حقه في الإنطلاق مع الحياة في أجواءحضارية جديدة . . ورفضت القيادة الدخول في لعبة الألغام وفي الرمال المتحركة للساحة السياسية ، وبدأت الرفض للسير بعيداً في متاهات المصطلحات الغريبة التي تربك المفاهيم الأساسية للإنسان المسلم في عملية التوفيق بينها وبين تلك المصطلحات في اسلوب متكلّف ، وطرحت الإسلام على الشعب من دون الدخول في تفاصيل البدائل الذي يعطي لها شرعية الموقف. فكانت القضية على النحو التالي الحاسم ، إمّا الإسلام ، وإمّا غيره . . وكان الشعب يفهم أن الإسلام هو الذي انتصر على الطغيان بشعاراته المضمّخة بدماء الشهادة وروحية التضحية التي

تحركت في الساحة بشكل لا مثيل له . . وكانت القيادة تجاهد بكل قوة واصرار في أن تصل بالشعب ، الى الهدف الأساسي وهو اقامة النظام الإسلامي على انقاض النظام الإمبراطوري المنحرف ، وقال الشعب نعم للإسلام ، وسقطت كل الأقنعة ، وعاشت الثورة الإسلامية من أجل ان تبني حكم الإسلام وعادت الأمة تحمل هاجس الحكم الإسلامي كما يحمل الإنسان في قلبه حلم الأحلام .

هذه هي بعض ملامح الصورة عن الأساليب التدريجية المرحلية في الوصول الى الهدف ، بطريقة واقعية عملية تربط الناس بالهدف من حيث لا يحتسبون من خلال تركيز المشاعر بشكل منظم متكامل . . . وربما كان هذا الأسلوب شيئاً جديداً في التصور الإسلامي للعمل فيما يطرحه المنظرون الإسلاميون الذين يتحركون على أساس تقديم الواجهة الإسلامية للساحة بكل تفاصيلها الفكرية والعملية . . وقد نحتاج ان نقف امامه وقفة تأمل عميق واسع لنأخذ الدرس الذي يمنح الحركات الإسلامية مرونةً أكثر على صعيد حركة الإسلام من أجل أن لا تتعطل المسيرة في مشاكل الخلافات النظرية المعقّدة ، وقد يجب علينا ـ في هذا المجال ـ أن نتوقف طويلاً أمام عنصر المرجعية ودورها الكبير الفاعل في الربط العضوي بين القيادة والأمة في أجواء القداسة الروحية من جهة والشعور بالإنسجام مع خط المسؤولية الشرعية المباشر لدس الأمة من جهة اخرى ، فإن

للمرجعية قداسة في نفـوس المقلدين والأتباع عـلى اساس تمثيلهـا لـلإمام المعصـوم في القيادة وفي الفتـوى التي تجعل من كـل كلمة تصدر منها قانوناً شرعياً يبرر لها مواقفها أمام الله في يـوم الحساب ويجعل من قضية الاندفاع في الجهاد بأوامـرها معنى روحيـاً يتصل بمعنى الشهادة .

وقـد يجب أن نتـوقف في استلهـام الـدرس العمـلي أمـام التعـاون بين الثـورة وبـين الفئـات الأخـرى التي تحمـل مفهـومـاً مضـاداً في مجال العمـل لنجد أنـه قد يتخـذ عنصـر الضـرورة في بعض الحـالات كما قـد يمثل عنصـر الخطر في الحـالات الأخـرى فاذا كانت الثورة قويـة بقيادتهـا وبسعة جمـاهيرهـا بحيث لا تتأثـر بالقوى الأخرى في طبيعة خطواتها وعلاقتها بالهدف ، فإن اللقاء يكون ضرورياً لمنع الخلافات الداخلية من أن تتحـرك في الساحـة كعنصر تفجيري أمّـا اذا كانت الثـورة لا تملك القوة الـذاتية التي تمنع من غلبة القوى الأخرى وسيطرتها على الساحـة فان التعاون يتحـول الى عنصـر من عنـاصـر احتـواء الثـورة من خـلال قـوى الإنحـراف باسم التحـالف والتعـاون كـما كـان الكثيـرون ممن لم ينفذوا الى واقع الثورة في عمقها وامتـدادها الـروحي والفكري في حيـاة الأمة يخـافون عليهـا من أن تقع فـريسة التيـارات الأخـرى غير الإسلامية . وكانوا يهوِّلون على الحـركة الإسـلامية بـانها تترك المجال للتيارات الكافرة ان تكـون البديـل للنظام المنحـرف الذي قـد يحمل الـظلم في داخله ولكنـه لا يعيش الكفـر الصـريـح في

سماتـه الـداخليـة والخـارجيـة . . ولكن ذلـك كـان نـاشئـاً من السطحية المغرقة في هذا الإتجاه .

المد الثقافي الاسلامي في حياة الأمة:

-لعـلّ من أفضـل الـدروس العمليـة للثـورة الإسـلاميـة في ايران ، ان القيادة الإسـلامية قـد وضعت خطة طـويلة الأمد من أجـل الإمتـداد الثقـافي الإسـلامي في حيـاة الأمـة فقـد عمـل المرشدون من العلماء وطلاب العلوم الدينيـة على تحـويل المسـاجد الى حركة دائمة للعمل الإسلامي على الطريقة المعروفة من توفير البرامج التي تشتمل على تفسـير القرآن وتعليم الأحكـام الشرعيـة ومعالجة قضايا الإنحراف بالـوعظ والإرشاد والتـوجيه بـالأساليب التي تخـاطب العقل والعـاطفة حتى تحـولت الأمة بشكـل عام الى أمة ملتزمة يالحكم الشرعي في الأمور العبادية والمـالية والعـلاقات الشخصيـة والإجتماعيـة والسياسيـة حتى أن نظرتهـا الى الـواقـع السياسي والإقتصادي والإجتماعي والعسكري كـانت تنطلق من ارتبـاطهـا بـالحكم الشـرعي فيـما يمثله من الـواجب والحـرام والحلال ـ فكان مسارها العمـلي في حياتهـا اليوميـة سائـراً في هذا الإتجـاه . . وكان ارتبـاطها بـالقيادة مـرتكزاً عـلى هذا الخط فهي تحصي على القيادة ممارساتها العملية في نـطاق الحلال والحـرام كما تحصي عليهـا اخلاصهـا للمفاهيم العـامة . . وقـد يجـدر بنـا أن نشـير في هذا المجـال الى الشرط الأسـاسي في شرعيـة القيـادة في صورة المرجعية ، أن يكون المـرجع ذا كفـاءة اجتهاديـة بالمستـوى

الأعلى كما يكون ذا عدالة دينية تتمثل في استقامته في سلوكه العملي على خط الشرع في كل جوانب حياته .

ولعل هذه التربية الشرعية للأمة كانت من العناصر الأساسية في التحرك بل ربما اعتبرت من أشد العوامل تأثيراً على الساحة لأنها خلقت لدى كل فرد من الأمة ذهنية شرعية تتحرك بحساب وتقف بحساب في خطة عملية ترصد الواقع على هذا الأساس وحسابه ، فاذا عرفت أن التكليف الشرعي يدفعها الى الإنضباط في موقف معين وقفت عنده وقفة حازمة وإن كان ذلك على خلاف رغباتها الذاتية وإذا رأت أنه يدعوها الى التحرك والإستشهاد كانت الشهادة هدفاً كبيراً من أهدافها الشرعية بعيداً عن كل هَوَسٍ مزاجي أو انفعالٍ عاطفي .

وهذا هو ما نحتاج الى ان نتعلمه في حياتنا العملية في الدعوة الى الله والجهاد في سبيله لأننا درجنا في أساليبنا المتنوعة في الدعوة الى الإسلام . أن نقدِّم المفاهيم الكبيرة والنظريات العامة التي تملأ فكر الإنسان المسلم . ولكنها لا تستطيع أن تحفظ له خطاه في القضايا الجزئية الصغيرة ، ولا تعلِّمه كيف يحول المفاهيم الى واقع ، حتى انتهى بنا الأمر الى أن اصبحنا نرى بعض الذي يتحمسون للإسلام ويعملون له تنظيمياً ، ممن لا يمارسون العبادات اليومية لأن ذلك مؤجل الى حين اقامة دولة الإسلام ، وهكذا يكون الإعتذار في حالة ارتكابه للمحرمات وهو في أشد حالات الإنفعال والحماس للإسلام ،

حتى تحول الإسلام في وعيهم الى مجرد نظام حكم كبقية انظمة الحكم الأخرى التي يراد لها أن تحل مشاكل الناس الجزئية والكلية .

اننا بحاجة الى ربط المسلمين بدينهم في حياتهم اليومية لا سيما في القضايا التي تنفتح بهم على الله سبحانه بطريقة مباشرة كالعبادات من أجل تحقيق الإنضباط العملي في ساحة الجهاد ، ولعل من الأمور التي يجب ان يعرفها المسلم هي أن الإسلام يختلف عن بقية الأنظمة في نقطة اساسية وهي أنه جاء لتغيير الإنسان من الداخل والخارج على الصعيد الفردي والإجتماعي ولذا فانه يفرض على الناس الالتزام بمفاهيمه وشرائعه في جميع المجالات الممكنة حتى في حالة غياب الحكم الاسلامي ، بينما نجد أن الأنظمة الأخرى لا تفرض على الناس مثل هذا الإلتزام خارج التطبيق الكلي للنظرية في جوانب الحكم والسياسة والإقتصاد لأنهم يعتقدون ان الإنضباط الفردي لا يحل المشكلة العامة التي جاءت الأنظمة لحلها في النطاق العملي العام .

الإنسجام بين علماء الدين وبين الناس :

- إن من مظاهر الثورة الإسلامية في أيران هذا الإنسجام الرائع بين علماء الإسلام وبين أبناء الأمة في كل قضايا المعاناة ، فقد عاش العلماء وطلاب العلوم الدينية كل الوان الإضطهاد والتعذيب بنفس المستوى الذي عاشه الآخرون من أفراد

الأمة ، بل ربما كانت المعاناة أشـد ، وقد تعـرض الكثيرون منهم للنفي وللتشـريد والإعـدام والرمي بالرصـاص عندمـا كـانـوا يتقدمون المظاهرات ويتحـركون في تنـظيم الجماهـير ضد السلطة الـطاغية وينـطلقون في كـل اتجاه يستـطيعـون الإنـطلاق فيـه من أجـل القضية، الأمر الذي جعـل الأمـة تشعـر بـأن الـدعـوة التي يثيرها الـوسط الديني في قضيـة الجهاد ليست تـرفاً فكـرياً ينـطلق من الأبراج العاجية بل هو واقع حي يعيشونه في حياتهم قبل أن يعيشه الآخرون .

وقـد يكـون من الضـروري أن يعمـل العـاملون في سبيـل تكـوين هذا الإنسجـام والحفاظ عليـه في أي مـوقـع من مـواقـع الثـورة الإسلاميـة لتبقى للصفة الإسـلاميـة صفتهـا التمثيليـة في حركة الواقع ، وتأخذ حجمهـا الكبير في حيـاة الناس من خـلال مـا يمثله علماء الـدين من رمـوز كبيـرة مؤثرة في واقـع النـاس الـديني . . واننا لا ننـطلق في هذا الـطرح من نقطة التفـريق بين فئة « رجال الـدين » وبين فئـة « المدنيـين » أو « العلمانيـين » كما يحلو لـوسائـل الإعلام أن تـطرح القضية في بعض أوجـه الصراع المزعوم بين الجماعتين ، فنحن لا نؤمن بوجـود مثل هـذا التمييز في قضيـة الجهـاد من أجـل الإسـلام ، بـل ننـطلق في ذلـك من مـوقع اعتبـار الـوسط الـديني المثقف اساسياً في مسيـرة الأمـة للحفـاظ على سـلامة القضيـة في مواقعهـا الفكريـة والتطبيقيـة ، وللحصـول على الإمتـداد الشعبي مع الثـورة من خـلال امتـداده

الطبيعي مع خط المرجعية ومحيطها ، وفي ضوء ذلك لا بد لنا من الوقوف بحزم أمام المحاولات المشبوهة التي يراد من خلالها الفصل بين دور علماء الدين في الحياة العامة وبين دور المثقفين الآخرين فقد يخيل الينا ان هذه المحاولات تعتبر جزءاً من الخطة التي تعمل على أن يدور علماء الدين في حلقة مفرغة من الواقع النظري المجرد البعيد عن قضايا الأمة في العمق والشمول كوجه آخر من الفكرة التي تقول بفصل الدين عن الدولة في صورة جديدة تدعو الى فصل علماء الدين عن الدولة . . وقد لا نعني في هذا المجال ، أن نعمد الى إعطاء العلماء دوراً طبقياً يتميزون به عن الآخرين فيما يقتضيه ذلك من امتيازات وحقوق ، لأن الإسلام لا يقر ذلك خارج نطاق «ولاية الفقيه» التي لا تمثل مركزاً طبقياً أو تشريفياً بل تمثل مركزاً متقدماً في حساب المسؤولية من موقع الحفاظ على سلامة القيادة واستقامتها في الخط النظري والعملي الصحيح .

إن كل ما نريد تقريره في هذا المجال هو أننا لا نوافق على عزل علماء الدين عن الحياة العامة وإبعادهم عن ممارسة المسؤولية بل نعمل على أن يكونوا في عمق المسؤولية وامتدادها بشرط ان لا يكون لصفتهم الإجتماعية أي ضغط على الموازين الأساسية لقضية الحقوق والواجبات فيحاسبون كما يحاسب أي فرد آخر ويثابون كما يثاب الآخرون من دون أي تمييز يتحول الى عقدة أو ينطلق من عقدة ذاتية أو إجتماعية .

تطبيق المفاهيم القرآنية في واقع المسلمين:

ـ ان الثورة الإسلامية قد استطاعت أن تحدد للجماهير المفاهيم الأساسية الحقيقية للأشياء في نطاق الكلمات القرآنية التي استخدمها القرآن للتعبير عنها حتى كادت أن تتحول الى مصطلحات إسلامية تحدد للشخص هويته من خلال استعمالها في حديثه ، فكان أن ابتعدت أو كادت تبتعد الكلمات المرتبطة باتجاهات اخرى ، عن اللغة الشائعة للناس في حديثهم عن الواقع ، فاصبحنا نسمع كلمة المستضعفين تعبيراً عن الفئات المحرومة المسحوقة الضعيفة التي لا تملك من أمرها شيئاً أمام المتكبرين الذين يملكون أعلى الإمتيازات التي لا يستحقونها ، أو المستكبرين الذين يحاولون أن يعطوا لأنفسهم ذلك أو يتظاهروا به ، وبرزت في الساحة كلمة « الطاغوت » تعبيراً عن الطغيان في مواقع السياسة والإجتماع والإقتصاد وتحركت كلمة الشيطان في نطاق النماذج الشيطانية اللاعبة بمصائر الأفراد والمجتمعات في الداخل وفي الخارج في تعبير الشيطان الكبير عن الإستعمار والشيطان الصغير عن عملائه . . وبدأت هذه الكلمات تفعل فعل السحر في التصور الإسلامي للأشياء فيما حملها القرآن من مفاهيم وإيحاءات وفيما حركها في المواقع المختلفة . . الأمر الذي جعل حركة اللفظ في الواقع تعني حركة الأحكام الشرعية المرتبطة بها في حياة الناس ، وإثارة المشاعر السلبية والإيجابية في

داخـل النفس أمامهـا . . وبذلـك أصبح الجـو الداخـلي في اللغة الشائعة جواً اسلامياً في تقييم الواقـع وفي حركـة الشعارات التي تؤكـد عـلى قضيــة المستضعفـين في الأرض وإذلال المستكبــرين وإبطال حكم الطاغوت وتدمير مواقعـه بدلاً من كلمـات الطبقيـة والبرجوازيةوالرأسمـالية والكـادحة وغيـرهم مما لا نتنكـر لمدلـوله من حيث طبيعـة المعنى ولكننا نشعـر بأنها ولـدت في غير الأجـواء الإسلامية وتحـركت في خطوط فكـرية معينـة تتمثل في رمـوز غير اسلامية من جانب الفكرة والمسار والهدف . . وعـادت للكلمات الإسلامية حيويتها ونضارتها وفاعليتها بعـد أن أبلاهـا الزمن غـير الإسـلامي وجعلهـا في متــاحف الكلمـات البـائـدة حتى كــان استعمالها يوحي بالشفقة والرثاء من خلال نظرة التقدميين الذين يحاولون الإيحاء بأن حركة التاريخ في مدلولها الفلسفي والإجتماعي لا تسمح بعودة هذه الكلمات لأنها لا تسمـح بعودة الأفكـار التي تعبر عنها وتدل عليها .

وقد توفـرت الثورة الإسـلامية ـ في هـذا الإتجاه ، عـلى أبعاد الكلمـات غـير الإسـلاميـة المحملة بمفـاهيم قـانـونيـة وسيـاسيـة وإجتمـاعيـة تختلف عن المفـاهيم الإسـلاميـة وذلـك مثـل كلمـة « الديمقراطية » التي اصبحت من الكلمات المـألوفـة المحببة لـدى المسلمـين حيث اتخذت لنفسهـا في داخل افكـارهم صفـة تلتصق بــالشخص أو بـالأسلوب لتعبــر عنهــا فيقــال : هــذا شخص ديمقـراطي ، بمعنى انه متـواضع متسـامح ، أو هـذه طريقـة غـير

ديمقراطية كتعبير عن الطريقة التعسفية وعاشت مع طبيعة الحكم، كما هي في الأصل،لتعبر عن الحكم المرتبط بالشعب المتحرر من الديكتاتورية . . وبذلك كانت المواقف المضادة لمفهوم هذه الكلمة يعطي معنى القسوة والتعسف والإستبداد . . وغاب المسلمون عن المعنى الحقيقي للكلمة حتى خيل اليهم انه يحقق لهم الخير كل الخير المنسجم مع الإسلام وتعاليمه ، وقد حاول البعض من العلماء الكبار أن يتحدثوا عن الإسلام الديمقراطي . . وفي مقابل ذلك كانت الماركسية صفة للإسلام لدى البعض الآخر فيما يعنيه هذا المصطلح من الأخذ بالإسلام عقيدة وعبادات وبالماركسية اقتصاداً وتحليلاً للواقع . . ووقف قائد الثورة ليحسم الموقف وليرجع الكلمتين وغيرهما الى اصولها الفكرية التي تمثل موقفا في الحكم وفي الفلسفة والتاريخ والإقتصاد ويختلف كل الإختلاف عن الإسلام في مفاهيمه وتعاليمه .

وضوح الهجمة الاستعمارية ضد الاسلام:

- قد نجد في إيجابيات الثورة الاسلامية. أنها استطاعت أن تكوّن لنا فكرة تفصيلية وافية عن الحقيقة الإستعمارية وهي خوف الإستعمار الكافر وعملائه من الإسلام عندما يتقدم الى الحكم ليؤكد قيمه وشريعته في واقع الإنسان والحياة ، فقد شاهدنا الهجمة الإستعمارية من كل القوى الكافرة في العالم

ضد هذه الثـورة لأنهم يريـدون لفكرة الحكم الإسـلامي ان تسير عـلى طـريقتهم التي يخـدرون فيهـا المسلمـين ببعض الأحكـام الشـرعيـة كـالحـدود والعبـادات ثم يتـركـون الـواقـع السيـاسي والإجتمـاعي والإقتصادي لمـطامـع الحكـام المستعمـرين . . أمـا الإسـلام الذي يؤكـد على الإستقـلالية الحقيقيـة من موقـع عـزة الإسلام والمسلمين التي لا يريد الله للمسلم أن يتنـازل عنها مهـما كانت الظروف . أمّا هذا الإسـلام فانهم يـرفضونـه رفضاً قـاطعاً ويعتبرونه رجعيـاً متخلفاً من بقـايا القـرون الوسـطى لأنه يحـاكم على الطريقة الإسلاميـة ويرفض الـطريقة الغـربية ، ولأنـه يدعـو الى إقامة حكم الله في كل شأن من شؤون الحياة ولا يوافق على الأساليب الأوروبية في التنـظيم والتشريـع اذا كانت مخـالفة لحكم الله .

انـنـا نعتقد بضـرورة القيام بـدراسة مفصلة عن كـل ما قيـل عن الاسـلام والمسلمين في نـطاق مواجهـة الثـورة الاسـلاميـة في ايـران . لنرصـد من خلال ذلـك اتجاهـات الريـاح القـادمـة من بعيد . ولنعرف نقـاط الضعف التي يحاول العـالم الكافـر أو العالم المسلم السـائر في فلكـه ان يستغلها لتشـويـه صـورة الاسـلام في نفـوس أتباعـه وفي وعي الآخرين ، لنـدرسها في عمليـة تصحيح للمسـار إن كـان هنـاك خـطأ فيـه . وللمضمـون أن كـان فيـه انحـراف عن الحق ثم نحاول متـابعة الـدراسـة لـلأسـاليب التي يمكن ان نقـدم بهـا الاسـلام للعـالم . أو نـطرح فيهـا قضـايـانـا

أمامه ، لأن من الضروري للفكرة أن تتحرك في اسلوب مشرق يحفظ لها صفاتها ونقائها وأشراقها . . فلا يجوز أن نخضع مواقفنا لأجواء وأساليب استعراضية قد تشارك في خلق الزهو بالواقع في النطاق المحلي ولكنها تترك آثاراً سلبية في امتداد الصورة في العالم ، وبذلك نشعر بالحاجة الى معرفة طريقة الإخراج للصورة قبل أن نبادر الى عرضها في الساحة الواقعية للأشياء . وربما نشعر بأن شبابنا المسلم الذي يعيش في أوروبا وأميركا وروسيا يحمل مسؤولية متابعة الإتجاهات المضادة وتحليلها ونقدها ـ إن أمكن ـ في نطاق القراءة الواعية الملتزمة الهادفة لنحصل من ذلك على رؤية واضحة لكل جوانب الهجمة الإستعمارية الكافرة ولكل أساليبها السائرة في اتجاه اهداف الإحتواء الحضاري من كل جهاته .

والله متم نوره:

- اننا نتعلم من خطوات هذه الثورة كيف تتوالى ألطاف الله على المسيرة الإسلامية عندما تتقدم الى الحياة في طريق الجهاد ، وذلك في دراستنا للظروف الصعبة التي عاشتها ، فكان أن هيَّأ الله لها من الأجواء ما استطاعت من خلاله الخروج من كثير من المآزق والتحديات من حيث لا تحتسب ، وبالمزيد من التأييد والتسديد في خطوات القيادة وفي حركة الأمة . . ولكن ذلك لا يمنعنا من دراسة الظروف الموضوعية

للنجاح في طبيعة شخصية القيادة وفي صمود الخط الثوري على النهج الاسلامي ، وفي الأساليب العملية التي ساهمت في تفتيت المقاومة للحكم الطاغي، وفي الاستفادة من الظروف السياسية المحيطة بالتحرك السياسي الثوري وفي غير ذلك من الأسباب الواقعية الخاضعة لسنة الله في الكون . . وبهذا نفهم أن هذه النظرة التي نريدها أن تحكم التوجه العملي للمجاهدين الاسلاميين في كل مكان لا تلغي الظروف الموضوعية للأشياء لأن مثل هذا التفسير لا يتنافى مع ألطاف الله التي تخلق للساحة ظروفها على أساس من الأسباب الخفية والظاهرة للأشياء . . ولعل هذا هو الأسلوب الذي يريده الاسلام للنظرة الاسلامية للعمل فلا يريدها أن تغرق في الغيب الذي يجعلها تبتعد عن أسباب الواقع ولا يريدها ان ترتبط بالمحسوسات التي تعزلها عن النظر الى الغيب الذي قد يرسل الله من خلاله ألطافه ،بل تكون متوازنة بين هاتين النقطتين لتعرف أن الغيب يهيء للواقع شروطه ، غير المنتظرة ،في بعض الحالات وان الواقع لا يتحرك الا من خلال سنة الله في الكون فهو نتاج ارادة الله التي اقتضت أن لا توجد الأشياء الا بأسبابها الطبيعية الظاهرة او الخفية ، فلا نغرق بعد ذلك في المجهول أو نبتعد عن الواقع .

النظرة الواقعية والشمولية للأمور :

إن من القضايا التي تواجهنا في تصورنا لمستقبل الثورة الإسلامية من خلال الواقع المعاصر أنّ القوى المضادة في الداخل تحاول بأكثر من طريقة أن تعرقل خطى الاسلام بكل اساليب اللف والدوران وذلك في خطوات الشخصيات المصطنعة العرقية والاقليمية ، أو المحاور الشخصية والمركزية في الكيانات المعقدة الموجودة في الساحة التي قد تلبس لبوس الاسلام مما يجعلنا نكتشف طبيعة الصعوبات التي تنتظر أي ثورة اسلامية مماثلة في حركة الداخل فيما يحمل الداخل من تعقيدات وفي حركة الخارج في تخطيط القوى العالمية للاجهاز على الاسلام والمسلمين . . إن علينا ان لا نكتفي بمواجهة الواقع في مشاكله وتعقيداته بالعموميات التي لا تدرس خصائص الأشياء وخلفياتها لأن ذلك يبعدنا عن فهم الواقع ويغرقنا في الضبابيات الفكرية لنواجه المشكلة من خلال الحلول الواقعية لا المثالية وبهذه المناسبة نحب أن نشير الى النظرة الطوباوية التي ينظر اليها بعض العاملين للاسلام ليصور الحكم الاسلامي عند تحققه ، كما لو كان حكما بلا مشاكل لأنه يحل كل المشاكل العالقة للانسان . . اننا نحب أن نشير الى عدم واقعيتها لأن المشاكل الواقعية ترتبط بالطبيعة المعقدة للتركيب الانساني التي قد تفرز الكثير من الأوضاع القلقة باستمرار وتخلق لنا الكثير من

الارتباكات، الأمـر الذي يجعلنـا نواجـه فكرة اعادة الاسـلام الى الحياة كفكرة تتعامل مـع المشاكـل تعامـلاً واقعياً عـادلاً لا ينطلق من نـظرة سريعـة أو تفكير معقـد أو مصلحـة ذاتيـة محـدودة بـل ينـطلق من النظرة الـطبيعية لـلأشياء في رؤ يـة شموليـة واقعية ، وبـذلك يكـون التحرك عـلى أسـاس مـواجهـة المشـاكـل لا عـلى اسـاس اغفالهـا والهروب منهـا ، وهذا مـا نعيشه في نـطاق الثورة الاسلامية في ايـران التي تتعامـل مع المشـاكل بحذر وواقعية، من دون ان تسقط أمـام المشكلة فيـما يـريـدِه الآخـرون من تحـريـك الـرمال المتحـركة تحت أقـدامها . . وهـذا هو مـا يجب أن يصبـر عليه المخلصون للثورة فلا ينهـزمون أمـامه ولا يتعقـدون معه بـل يتعاملون معه كحقيقة واقعية للعمل والحياة .

وقفة تأمل حول مفهوم الحرية الفكرية والسياسية في الإسلام:

ـ ربمـا نحتـاج إلى وقفـة تـأمـل حـول مفهـوم الـدولـة الاسـلامية للحـريـة الفكـريـة والسيـاسيـة من خـلال التجـربـة المعـاصـرة للحكم الاسـلامي في ايـران ، فقـد كـانت الفكـرة المـطروحة في الأبحـاث الاسلاميـة إن الاسـلام لا يمنـح الحـريـة الفكرية والسياسية للتيـارات والأفكار المضـادّة ، على أسـاس انه لا يمكن أن يـوافق الاسلام عـلى إفساح المجـال لـلآخـرين لكي يحطموا أسسه الفكريـة والسياسيـة ويضللوا الناس عن طـريقه .

ويبعدوهم عن الايمان به ، ولهذا أفتى الفقهاء بحرمة حفظ كتب الضلال وبيعها وشرائها . . وفي ضوء هذه الفكرة كانت الدعاية الموجهة ضد الاسلام انه لا يحترم حرية الفكر في الانسان ولا يسمح للموقف المخالف ان يعبر عن نفسه وكان المفكرون الاسلاميون يجيبون عن ذلك ، بان الاسلام لا يؤمن بالحرية على الطريقة الديمقراطية لأنها لا تلتزم بفكر خاص بل هي الإطار الذي يحتضن أي فكر، مهما كان لونه، بشرط اختيار الشعب له من خلال ممثليه بل يؤمن بالحرية في اطار مصلحة الإنسان المستمدة من شريعة الله . . فلا يمكن أن يسمح بالحرية المضادة لهذه المصلحة الانسانية، ولكننا الآن،وفي نطاق التجربة الإسلامية المعاصرة، نشعر بأن علينا أن نفكر في القضية بطريقة جديدة فقد منحت الثورة الحرية في العمل حتى للأحزاب السياسية المضادة لفكرها، وجهاً لوجه ،كالحزب الشيوعي ولكنها لم تتجمد أمامه بل حاولت أن تدخل معه في صراع الفكر والحركة من موقع جديد ، وهو دراسة الساحة السياسية التي تتحرك فيها الأمة حيث تشعر أن القوة الاسلامية الممتدة تستطيع أن تعطي القوى الأخرى حجمها الطبيعي في عملية مواجهة هادئة تفرز القوى في الساحة بشكل واقعي ، وبذلك تستطيع أن تقوم بعملية التذويب بهدوء دون اللجوء الى عملية القهر والضغط والتصفية . . بينما يمكن لهذه الأساليب ان تنتج إعطاء الصورة بشكل أضخم عن الواقع لهذه التيارات ، أو تكسبها عطفاً

شعبياً يساهم في تعاظمها السياسي والشعبي ، وفي نطاق هذه الفكرة نجد ان الثورة الاسلامية لا تلغي الهدف وهو حماية الإسلام من مخططات اعدائه بل تلغي الوسيلة وهي محاولة ممارسة الضغط الجسدي والمعنوي على الأفكار الأخرى كسبيل من سبل الوصول الى تحقيق الهدف لتكون الوسيلة الجديدة هي ابعادها عن وجدان الجماهير على أساس تعريتها أمامها في وسائلها واهدافها وافكارها ، إن هذه التجربة الجديدة جديرة بالدرس والتأمل والملاحقة من أجل مواجهة قضية الحرية في الاسلام باسلوب جديد وروحية جديدة .

تجربة جديرة بالتأمل والدرس:

ربما كانت التجربة الاسلامية في ايران للحكم الاسلامي من التجارب الجديرة بالتأمل والدرس ، فقد كانت الرؤية المطروحة للحكم الاسلامي تختلف حسب اختلاف الاجتهاد لدى المسلمين بين رأي يطرح القضية في صورة الخلافة السابقة مع الاختلاف في بعض التفاصيل ، وبين رأي يطرح القضية في صورة الشورى التي تأخذ الشكل الديمقراطي مع تبديل المضمون ، وبين رأي يطرح ولاية الفقيه في صورة الحكم المطلق الذي يوحي بالاستبداد والفردية المقدسة التي لا يمكن لأحد مخالفتها والاعتراض عليها . . وبذلك كانت الفكرة المألوفة ان الحكم الاسلامي لا يمثل الصورة الواقعية العصرية

التي تنسجم مع جو العصر واسلوبه ونظرته للأشياء ، بل يمثل صورة تعيش مع التاريخ في روحية الماضي . . وتحركت الدعايات المضادة في الداخل حتى من بعض الرموز الكبيرة للمرجعية ، وفي الخارج من الأجهزة الكافرة والمستعمرة والضالة لتعطي الصورة مزيداً من الظلام والسواد والبدائية ، وجاءت التجربة الاسلامية الجديدة لتطرح صورة عصرية لا تتنكر لفكرة ولاية الفقيه ولا تتنكر للأساليب العصرية في تنظيم الحكم ولا تسمح للأستبداد أن يشوه وجه الحكم وذلك في الصيغة المطروحة للتطبيق في الساحة الايرانية بعد أن استكمل العلماء والفقهاء الأسس الاجتهادية لسلامتها فقهياً وشرعياً . . اننا نشعر بالحاجة الى متابعة هذه التجربة بالدراسة على ضوء الكتاب والسنة من جهة وعلى ضوء المصلحة الاسلامية العليا في حاضر الاسلام ومستقبله ليستقيم للحكم الاسلامي صورته الواضحة الكاملة المشرقة التي تحتضن الكثير من الإيجابيات وتوفر علينا الكثير من السلبيات .

الثورة الاسلامية أعطت الكثير :

وختاما اننا نشعر ان الثورة الاسلامية قد اعطت الكثير بالرغم من عمرها القصير ، فقد استطاعت ان توصل الاسلام الى كل مكان في العالم من خلال الضجة الاعلامية التي انطلقت من اصوات المؤيدين والمعارضين ، كما استطاعت أن

تـدفع بـالعمل الاسـلامي الى مجالات متقـدمة من خـلال الروح الاســلاميـة الجــديـدة التي خلقتهــا في نفــوس الجيــل المسلم المعاصر . . ولا زلنـا بانتـظار جديـدها في كـل يوم . . ولا تـزال الـروح العـظيمـة المتمثلة بقيـادتهـا الـرائــدة في شخص آيـة الله الخميني تقـدم لنـا في كـل يـوم دليـلاً عـلى الاخـلاص في الفكـر والثـورة والمسار . . حفـظه الله رمزاً للوحـدة وللجهاد وحفظ الله للأمة ثورتها الرائدة .

في بداية القرن الخامس عشر الهجري
قضايانا الاسلامية وموقفنا منها

في بداية القرن الخامس عشر الهجري
قضايانا الاسلامية وموقفنا منها

ربما يلتقي العاملون بـالاسلام في كـل بلدٍ بالقضـايا المحليـة التي تتصـل بحياة النـاس في شؤون حيـاتهم العـامـة فيـما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فقد تكون هناك مشكلة غلاء أو إحتكار أو فقدان فرص العمل أو استغلال جهود العمال لغير مصلحتهم على أساس الظروف القاسيـة المحيطة بهم التي تسمح بهذا الاستغلال . .

وقـد تكون في السـاحـة مشكلة سيـاسيـة في مستـوى الحكم الـذي يعيش الـظلم والـطغيـان في خـطـطه وأسـاليبـه فيخنق الحـريات ، وينشـر الفساد ، ويعـطل القانـون . فلا تبقى هنـاك كلمـة لمسؤول ولا صـوت لمعـارضـة ويتحـول البلد الى سجن كبير . . وقد تكون المشكلة على مستـوى التحديـات الخارجيـة ، فيـما تمثله ارتباطـات الحكم بهذا المعسكر أو ذاك مما يتـرك آثـاراً

سلبيـة كبيرة عـلى قضية العـزة والكـرامـة والاستقـلال . ويؤدي ذلـك الى أن تصبـح مقــدرات البلد في أيـدي المستعمــرين من خلال هذا السياسي المزيف أو ذاك القائد الكبير . .

وربمـا عاشت البلد أوضـاع الفتنة عـلى مستـوى الخـلافـات الـدينيـة أو السيـاسيـة أو العـائليـة ، أو العنصـريـة وتحـولت الى ساحات للتقاتل والتناحر ، وانطلقت تزرع الفوضى والدمـار هنا وهنـاك فلم تعد هنـاك علاقـات انسـانيـة حميمـة تحكمهـا المـودة والرحمة ولم يبق هناك جسور مفتوحة يلتقي عليهـا الأطراف . . على اساس الحوار والتفاهم . . فليس هنـاك إلاّ الحقد والبغضـاء يعيشان في الأعماق ، ويلتهبان في خلجات الشفاه .

فماذا نصنع أمام ذلك كله ؟

ربمـا يطرح بعض النـاس الفكـرة التي تقـول : إن الانســان الذي يهتم بالمشاكل والقضايا الكبيـرة التي تقف في مستوى العـالم كله أو العـالم الاسـلامي عـلى الأقـل ، لا ينبغي لـه أن يـواجــه المشاكل والقضـايا الصغيـرة التي تتعلق بسياسـة هذا البلد أو ذاك أو باقتصاده وبقضـاياه الاجتمـاعية المحـدودة ويضيف هؤلاء . . إن جميـع هذه المشـاكل يمكن أن تحـل إذا استـطعنـا ان نتقـدم في حل المشكلة الكبيرة وهي إعادة الاسلام الى الحياة . . فهو الحل الـذي يستوعب في داخله كـل الحلول وربما يـطرح بعض النـاس هذه الفكرة من خـلال المصطلح السيـاسي الذي يـواجه المـوقف

بطريقةٍ حاسمة ، تجعل الحركـة خاضعـة لأحد خيـارين في طبيعة التحرك بعيداً عن أي خيارٍ ثـالث . فهناك اسلوب الثـورة الذي يعمل على الاهتمـام بالجـذور العميقة للمشكلة الام فيحـاول أن يقضي على قاعدة الفساد ليبني عـلى أنقاضهـا قاعـدة الصلاح . . لأن الفروع ترتبط بالأصول فـلا مجال للقضـاء عليها إلاّ بـالقضاء على أصولها . .

أمـا عمليات التشـذيب والتلقيح والمـداواة والترميم فـإنها لا تحقق الا نتيجة جزئيـة في وقت محدود ، وتعمـل في الوقت نفسـه عـلى تخديـر المشكلة لتعود بعـد حين في عمليـة رد فعل شـديد . قد يقضي على الأخضر واليابس كما يقولون .

إنـه مصطلح الثـورة ، أو الاصلاح . . الهـدم ثم البنـاء من جديد أو الترميم الى ما لا نهاية . .

المبادىء الاسلامية والوضعية في نظرتها للإنسان :

ولكننـا نناقش هـذه الفكـرة من زاويـة اسـلاميـة . . فـاننـا نعـرف أن طريقـة معالجـة الاسـلام للواقع تختلف عن معـالجـة المبـاديء الوضعيـة المفصـولـة عن الانسـان ككـائن حي متحـرك متغير متعدد الجوانب وكانت نظرتها اليه بإعتباره نتيجة حتمية لما حـوله من مؤثـرات وظروف فهـو وليد بيئتـه في كل مـا تفـرضـه البيئة من سلبيات وإيجـابيات . . ولا بـد له في إحـداث أي تغيير في واقع حياته من خلال المبـاديء لا من خلال القضـايا المحيـطة به . . وبذلك كانت قضيته مرتبـطة بالـواقع الخـارجي بعيداً عن

إرادته واختياره ، بل هما تابعان للواقع في تكوينهما وحركتهما . . وفي ضوء ذلك لا يمكن لك أن تساهم في حل المسكلة الانسانية الروحية والمادية الا بتغيير نمط حياته بشكل كامل ولن يتحقق ذلك الا في إطار الثورة دون الاصلاح .

تغيّر الذات هو المرتكز:

أما الاسلام فإنه ينطلق من حقيقتين أساسيتين في الكون . . هما الله . . والانسان . . فالله هو الخالق الذي أوجد الحياة واعطاها قوانينها وسننها الطبيعية وحرّكها في إتجاه الأهداف التي أرادها بكل تنظيم ودقة واتقان . . وهو الاله الذي لا إله غيره ولا معبود سواه ، فليس لأحدٍ أن يعبد غيره أو يلتجأ الى سواه والانسان هو المخلوق الذي ميزه الله عن سائر المخلوقات بالعقل والارادة ، وزوده بالوسائل والأجهزة الذاتية التي يستطيع من خلالها أن يكتشف الحياة ويحكمها وينميها ويغير أوضاعها من حالٍ الى حال . . وجعل بيديه من خلال قدراته الطبيعية القابلة للنمو والتطور ، القدرة على إدارة دفة الحياة ، وسخر له الكون كله ليدبره ويدبر نفسه من خلاله . . واعتبر عقله وإرادته قاعدة المسؤولية لأنه يستطيع بهما أن يفهم الأمور فهماً جيداً من جهة ، وأن ينميها ويطورها في الخط الذي يريده الله مما يحقق مصلحة الانسان من جهة أخرى ، وفي هذا المجال كانت القاعدة الاسلامية تقول :

غيّر نفسك تغير الواقع والتاريخ .

﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ .

وطرح القاعدة المادية التي تقول : غيِّر الواقع تغير نفسك وحياتك .

وفي ضوء ذلك كان إهتمام الاسلام بالانسان من أجل أن يحقق رسالته في اتمام دوره بتغيير ذاته من أجل تغيير الحياة من مواقعها السليمة . . وهذا هو ما جعل التركيز على ملاحقة نقاط الضعف الانساني على المستوى الفردي والاجتماعي من أجل تحويلها الى نقاط قوة أو تخفيف ما في داخلها من نوازع الضعف وملاحقة نقاط القوة من أجل تنمية عنصر القوة فيها الى مستوى أعلى ، وإبعادها عن التضخم الذاتي الذي يفسح المجال في داخلها لنقاط الضعف . . لأن المواجهة الدائمة للانسان في الجزئيات والكليات . . تجعل عنصر التغيير حياً متحركاً حيث يعمل في أكثر من اتجاه مما يقود عملية التغيير الى مجال سليم لا أثر فيه للضعف والاعتزاز بينما يمثل إغفال ذلك لوناً من ألوان إبعاد الانسان عن المعنى العميق للمبادىء وذلك بإبعاده عن الممارسة الفعلية لها . . ويوحي - في بعض الحالات - بانحسار الروح الانسانية في الداخل بحجة أن عليها الانتظار طويلاً حتى يستكمل الواقع عناصره اللازمة للتغيير الشامل . . فاذا واجهتك حالة صعبة من حالات البؤس الانساني وكنت قادراً على تخفيفها أو حلها ، فهل يمكن أن تقول

لنفسك إن مثل هذه الاهتمامات الصغيرة لا تتناسب مع الدور الذي أقوم به في الاهتمامات الكبيرة الشاملة . .

إن الانسان في الاسلام هو الأساس ، ولهذا كانت الأمور الصغيرة والكبيرة موضع اهتمام التشريع فيما يدعو اليه من أعمال ، وفيما يعد فيه من ثواب أو ينذر عليه من عقاب فكانت النصوص القرآنية والنبوية تركز على الأعمال الصغيرة والكبيرة في جانب الطاعة والمعصية . . من حيث نتائجها الايجابية والسلبية . .

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . . ﴾[1].

وتحدثت كثيرٌ من الأحاديث عن بعض الأعمال التي تدخل السرور في قلب الانسان وتذهب الأذى عنه ، وتزيل العوائق عن طريقه وتفتح حياته للرأي السديد ،وتقضي حاجته وتحل مشكلته وترد لهفته وتقوي ضعفه وتهدي طريقه وتحفظ خطاه من الضياع والانزلاق . وشجعت الانسان على العدل الصغير والكبير كما أبعدته عن الظلم المحدود وغير المحدود . . في خطة تريد أن تجعل من « الانسان » الهم الكبير للانسان في تفكيره وحركته من دون أن تربط ذلك بتحديد زمني معين أو مرحلة عملية معينة بل هو الخط الكبير الذي تتدخل فيه الخطوط

(١) ـ الزلزلة الآية ٧ ـ ٨ .

وتتشابك ، وتنفصل في أكثر من خطوة . أو حركة أو اتجاه .

وربما كان السبب في ذلك ، أن الاسلام يرى هناك فرقاً بين جانب النظرية والتطبيق ، فان النظرية تبدأ من الكلي لتتمثل في الجزئي . . . فمن أجل أن تقوم بعملية رصد لفكرة مّا لا بد لك من أن تواجهها في مفهومها الشامل لترصد وجودها أو عدم وجودها في ظاهرة أو حديثٍ أو قضية من خلال الملامح العامة في الأجواء الفكرية لها . . أمَّا اذا شئت أن تركز التطبيق في حركة الحياة فلا بد لك من أن تثيرها في القضايا الصغيرة ليكون ذلك بمثابة عملية تدريب للممارسة أن تحمل في داخلها القيم الكبيرة وتختزنها بطريقة تدريجية . . في سبيل أن يتحول الكيان الى تجسيد عملي للفكرة وذلك هو السبيل للحركة الواقعية للقيم الروحية والانسانية في داخل الكيان الانساني . . فقد يكون من الضروري أن يظل الانسان مشدوداً اليها في عمله اليومي في جزئيات حياته . . لتبدأ من خلال ذلك عملية الاختزان التي تحول التربية الى خطة عملية واقعية لا تجعل المبادىء تتحرك في الفراغ الفضائي . . بل تعمل على أن تجعلها في الساحات الواقعية للأرض ، لأنها لم تشرع لتتعلق بالفضاء بل لتعيش في ارض الواقع في الانسان .

أما الحديث عن الخطة الشاملة التي تحل المشكلة الأم فإنها لا تبتعد كثيراً عن الخطة المرحلية بل تتعايش معها وتتحرك في طريقها اذا عرفنا كيف نربطها بقضية التغيير الداخلي

للانسان .. ولم نحولها الى خطة تتحدث عن المادة في الانسان .. ومن حوله ، ولا تتحدث عن الإنسان في حركة المادة والروح ..

وهناك نقطة لا بد من توضيحها في هذا المجال وهي ان القيمة الاسلامية تعمل على تحقيق نفسها وتجسيد معناها في الفاعل والمنفعل ، أعني الذي يمارس القيمة والذي يستفيد منها . . فاذا اراد الاسلام من الانسان ان يتصدق فلكي يحقق في ذلك هدفين ، الأول تربية روح العطاء في المتصدق ليعيش هذه الروح في داخله بعيداً عن طبيعة مشكلة الانسان الآخر .. ولهذا ألحق الاسلام بالصدقة الهدية وصلة الرحم حتى في موارد عدم الحاجة ..

الثاني: حل مشكلة الانسان الذي يتخبط في ارض الواقع ..

وفي ضوء ذلك كانت الممارسات الصغيرة ذات هدف في التربية الذاتية الروحية ، وان تتحقق النتائج العامة الشاملة من خلال ذلك ، فكيف إذا تحققت في الاطار المرحلي من جهة كخطوة أولى من أجل الحصول عليها في اطارها النهائي المنشود ..

الإهتمام بالناس ومعالجة مشاكلهم:

وبهذه الروح .. نشعر بضرورة توجيه الاهتمامات الى

مشاكل الناس وآلامهم وأحلامهم وعلاقاتهم ومعاملاتهم الخاصة تحقيقاً للمعنى الانساني الذي يريد الله منا أن نعيشه في نفوسنا من أجل تخفيف آلام المعذبين في الأرض . . وإشعار الأشخاص الباحثين عن البسمة في السعادة . . بكل الوسائل الذاتية التي نملكها للوصول الى ذلك . . .

وفي هذا الاتجاه لا بد للمسلمين العاملين من أن يدخلوا الى حياة الناس ليعالجوا مشاكلهم . . حتى في نطاق دولة الكفر والضلال لأن خدمة المؤمنين والاهتمام بهم لم تتحدد في إطار معين ليبتعد الانسان عن الشعور بالمسؤولية خارج نطاق هذا الخط وبذلك لن يحس المسلم بالفراغ والضياع والغربة في ظل الحكم غير الاسلامي بل يحس بوجود أدوار كبيرة وخطوط تفصيلية متنوعة ، وأهداف مرحلية متعددة يستطيع أن يثيرها في داخل حياته وحياة الآخرين وذلك كعمل إسلامي هادف لأن هذا المصطلح يشمل كل عمل تحقق به فقرةٌ من فقرات التشريع الاسلامي في أي جانب من جوانب الحياة لتحصل من خلالها على رضا الله .

وهذا أمر يمكن أن يمارسه المؤمنون العاملون في حقل المؤسسات التنظيمية او الذين يعملون بطريقة غير منظمة . . لأن النتائج سوف تكون إيجابية لمصلحة الاسلام لدى كلا الفريقين . . وإن كانت النتائج لدى الفريق الأول أكبر وأكثر انتاجاً وتحقيقاً للهدف .

شهيد الإسلام
آية الله الصدر
في دوره الإسلامي الفاعل

شهيد الإسلام
آية الله الصدر
في دوره الإسلامي الفاعل

قليلون هم الأشخاص الذين يمثل مرورهم بالحياة، نقلة جديدة في مجتمعهم أو أمتهم من خلال ما يقدمونه من عطاء على مستوى الفكر والتربية والمعاناة، أو ما يرسمونه من خطوط عملية في طريق الهدف وهؤلاء يستمرون في الحياة ـ بعد موتهم ـ من خلال استمرار حركة العطاء وحركة الخط ـ من بعدهم. . لعل من أبرز هؤلاء في مرحلتنا هذه، شهيد الإسلام آية الله المفكر الاسلامي الكبير السيد محمد باقر الصدر الذي نتمثل ذكراه السنوية الأولى في ذكرى استشهاده. .

ونحن هنا ـ في محاولة لتقييم الدور الذي قام به في حياته القصيرة من خلال الخطوات العملية التي سارت حياته معها. . وذلك في عدّة نقاط .

مقارعة الفكر الماركسي بفكر اسلامي عميق :

- مواجهته للفكر الماركسي من موقع الفكر الاسلامي العميق

الممتـد، بعد أن كـانت الأساليب السيـاسية التقليـدية في وسـائل الاعلام تتخذ الوجه السطحي الذي يعتمد على التشهير، مما كان يـوحي للفئات الأخـرى بالاحتـرام للمـاركسيـة بمقـدار مـا تمثـل أساليب نقدها من سطحية وابتذال. . وبذلك استطاع الشهيد أن يحقق في هذا الاتجاه عدة نتائج :

أ ـ الإيحاء بأن الإسلام أمين عـلى فكر خصـومه الفكـريين، فيعمل على أن ينقل وجهة نظرهم كاملة غـير منقوصـة من موقـع أمانة الفكر ، والشعور بالقوة أمام الفكر المضاد .

ب ـ الإيحاء بأن الإسلام يملك الفكر الفلسفي والإقتصـادي الـذي يستطيـع من خلالـه أن يواجـه أفكار الآخـريـن من موقـع الحوار الفكري لا من موقع الشعارات العاطفية البرّاقة .

ج ـ التأكيد على الموقع الإسلامي المتميز المستقل في مـواجهته لمشـاكل الحيـاة بحلول واقعيـة عمليّـة أصيلة ولـذلـك كـان نقـد الماركسية لا يمثل تأييداً للرأسمالية بل كان يثير نقـاط الضعف هنا بنفس القـوة التي يثير بهـا نقاط الضعف هنـاك من أجـل إيضـاح الحل الإسلامي الأفضـل ـ وبذلـك ابتعد عن الـوقوع في حبـائل الأساليب التي تعتمدها المخابرات المركزية الاميـركية من تـوظيف نقد الماركسية إلى دعم للرأسمالية باعتبارها تمثل نظام الحرّ .

د ـ توجيه الابحاث الإسلامية للسير في هذا الإتجاه . بعيـداً عن الأساليب الإنفعاليـة الساذجـة . . ولهذا رأينـا كيف انطلقت الدراسات اللاحقة لتجعل من كتبه في الفلسفة والإقتصاد مصادر

أساسية لأفكارها وطروحاتها الفكرية .

وقد حدثنا بعض الثقاة عن الفيلسوف الفرنسي روجيه غاروردي إعجابه بكتاب «فلسفتنا» عندما أطلعه عليه أحد أصدقائه . . نظراً لما يتميز به من عمق وأصالة ، وعن الدكتور زكي نجيب محمود الذي أبدى اهتمامه وإعجابه بكتب الشهيد لا سيما كتاب « الأسس المنطقية للإستقراء » الذي قال عنه : أنه من الكتب التي ينبغي أن تترجم إلى اللغة الإنكليزية ، لتعرف أوروبا أن لدينا فلاسفة أصيلون يملكون العمق الفلسفي في الفكر المستقل . . ولا يزال المثقفون في سائر أقطار العالم الإسلامي يقبلون عن دراسة « فلسفتنا » و « إقتصادنا » و « الأسس المنطقية للإستقراء » كمصادر أصيلة للفكر الإسلامي الجديد التي لا بديل عنها فيما ألفه المؤلفون في مواضيعها .

مواجهة الواقع اللإسلامي بخطة عملية للتغيير :

- مواجهته للواقع اللاإسلامي الكافر والمنحرف، بالخطة العملية الشاملة للتغيير ، فلم يكن مجرد إنسان مفكر يعيش في نطاق التنظير للآخرين بعيداً عن حركة الحياة التغييرية بل كان يفكر منذ بدايات انطلاقته الفكرية في التخطيط لعمل اسلامي منظّم ينفتح على الحياة من موقع حاجة الحياة إلى الطلائع الواعية التي تحمل الفكر والعلم بيد، وتحمل الجهاد الاسلامي من أجل تحويل الفكر إلى واقع عملي يحكم بيد أخرى. . ولذلك فقد فكر

في إنشاء حركة إسلامية من خلال الاجتهاد العميق، فانطلق في ثلّة من إخوانه يعمل في هذا الاتجاه، وكتب آنذاك « الأسس الاسلامية » للحركة من أجل أن تبدأ من موقع الحكم الشرعي الصحيح . . وقد عانى في سبيل ذلك الكثير الكثير ، من مجتمعه الذي كان ينظر نظرة سلبيّة إلى أيّ عمل إسلامي منظم انطلاقاً من أفكار خاطئة ناتجة عن ضيق الأفق من جهة وعن خلفيّات قلقة من جهة أخرى وقد استخدم الكثيرون هذا الاتجاه في فكره وفي خطواته الإسلامية العملية ؛ سلاحاً يحاربونه به في صعوده الملحوظ نحو مركز المرجعية الاسلامية في النجف الأشرف ، على أساس أن ذلك يمثل تحرّكاً سياسياً لا يتناسب مع قداسة المرجعية فيما تمثله من عزلةٍ عن الإصطدام بالحكم والحاكمين وقد اختلفت الضغوط عليه في ذلك بمختلف الأساليب ، ولكنه كان يمتاز بمرونة فكرية وعملية في التخلص من نتائج هذه الضغوط فكان يستسلم لبعضها فيما لا يضرّ الخط الاسلامي الأصيل كما حدث له في مجلة الأضواء التي كان يصدرها «جماعة العلماء في النجف الأشرف » لتكون الردّ الفكري الثقافي على المدّ الإلحادي الشيوعي بعد ثورة ١٤ تموز في سنة ١٩٥٨ في العراق . . وكانت هذه المجلة بإشرافه وبإشراف جماعة من إخوانه . . وكان يكتب افتتاحيتها تحت عنوان « رسالتنا » في الأعداد ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ، ولعلّ قراءة هذه الافتتاحيات تعطي الفكرة الكاملة عن اتجاهه الفكري في طريق التحرك الاسلامي كما تشير إلى علاقته بالخط الإسلامي الحركي آنذاك . . وقد امتنع تحت تأثير كثير من

الضغوط عن كتابة الإفتتاحية بعد ظهور علاقة الحركة الإسلامية بالمجلة . . ولكنه كان يعطي الفكرة لبعض الكتاب الاسلاميين في أكثر مجالاتها بعد ذلك . . وقد بقيت علاقته بالحركة الاسلامية قوية . بالنظر إلى أن الطليعة الواعية الإسلامية من جماهير الحركة كانت تتغذى من فكره وكانت ترجع إليه في كثير من أفرادها بالتقليد ولكنه لم يكن في السنوات الأخيرة مرتبطاً بها ارتباطاً عضوياً تنظيمياً ، وربما كان يختلف مع بعض قادتها في أساليب العمل وربما كانت الخلافات تصل الى حدّ التأزّم ولكنه كان يحترم فكر الكثيرين منهم ، ولا يمنعه ذلك من رعاية الخط الأصيل العام للأسلوب الإسلامي الحركي في العمل . لأن القضية لديه كانت قضية فكر يؤمن به ، وخط يسير عليه ويريد للآخرين أن يسيروا عليه وليس مجرد حالةٍ ذهنيةٍ تجريدية طارئة .

وقد كان من بعض الجوانب التي كانت مثاراً للخلاف الفكري بينه وبين بعض قياداتها . . هو جانب انتماء طلاب العلم الديني وعلماء الدين إلى الحركة الإسلامية فقد كان ـ قدّس سرّه ـ يرى أن من الأفضل للعالم الديني أن لا ينتمي إلى تنظيم ليكون للجميع في قيادته حتى إذا كان مؤمناً بفكر التنظيم وأسلوبه في العمل ، لأن الإنتماء يحدد له حركته ويجعل الآخرين من المؤمنين في موقع المقابل له . . مما يعطّل فاعليته في خدمة الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية ، ولهذا أصدر في بعض المراحل حكماً بحرمة الإنتماء للأحزاب الاسلامية على طلاب العلم . . وكان من رأي بعض القيادات الإسلامية ، أن ابتعاد علماء الدين عن الدخول

في التنظيم الإسلامي يجعل التنظيمات الإسلامية في عُهدة أشخاص قابلين للإنحراف من موقع عدم تخصصهم بالثقافة الإسلامية وعدم معرفتهم بأحكامها الأساسية بينما يكون في الداخل ضماناً لعدم الإنحراف من جهة وأساساً لشرعية العمل من جهة أخرى وكانوا يرون أن السلبيات تقف أمام الإيجابيات بعد أن كان لكل عملٍ سلبياته وإيجابياته وقيل : إنه تراجع عن هذا الحكم الذي يعتقد البعض أنه كان لمرحلةٍ زمنية معينة، وقيل أنه جمّده . . ولكن من الثابت أن المرحلة الأخيرة من حياته كانت تمثل انسجاماً كبيراً مع الطليعة الإسلامية الواعية التي كانت ترى فيه ـ بحق ـ القائد الاسلامي الحكيم المخلص لجهادها المخضب بالدم المعطر بالإستشهاد الذي كان ـ هو ـ القمة ـ في تجسيده للقائد الذي يتقدم صفوف الشهداء من أجل الإسلام ليكون الطليعة الرائدة لهم في الطريق المستقيم الطويل .

محاولة دفع المرجعية نحو الإطار المؤسساتي العام :

- محاولته التخطيط للمرجعية وإخراجها من واقعها الحالي الذي يجعلها مرجعية شخص يملك المؤهلات العلمية التي توصله إلى مركز القيادة ، فتنطبع بطابعه في نطاق العلاقات والإتصالات والأوضاع . . ثُم تعتبر كل وسائله ومشاريعه تركة شخصية لأهله من دون أن تبقى للمرجع الآخر . . الأمر الذي يعقّد كثيراً من الأعمال الإسلامية ويضيع كثيراً من الجهود ويخلق حالة من الإرتباك في العلاقات العامة التي قد تكون مرتبطة بالمرجع القديم

في نطاق استمرارها مع المرجع الجديد : فقد كان الشهيد السعيد ـ قدس سره ـ يفكر في أن تكون المرجعية مؤسسة كل علاقاتها ومشاريعها وأعمالها في الإطار العام ، بحيث تكون الخصوصية في شخصية المرجع وطريقته في القيادة والعمل ، بينما يتحرك في خط المؤسسات التي يتحرك فيها في الخط العام وبذلك يجد المرجع الجديد كل شيء جاهزاً أمامه فلا يبدأ من نقطة الصفر بل من حيث انتهى أسلافه الآخرون . . ولا يزال هذا التفكير الذي يلتقي به الشهيد السعيد مع الكثيرين من اخوانه العاملين حلماً وفكرة تنتظر الظروف الموضوعية للتحقيق . .

التركيز على شخصية العالم الديني المتحرك :

-إعداده الواعي المتكامل لشخصية العالم الديني الذي يعمل على تربيته ، فقد كان طموحه ان يكون الجيل الجديد من علماء الدين المسلمين في جامعة النجف أو قم أو غيرهم من الجامعات الإسلامية نموذجاً فريداً في الثقافة الإسلامية وفي الخط الواعي للتحرّك . . فقد كان يرى أن التحديات المضادة التي تواجه الإسلام والمسلمين تفرض على العاملين الذي يتسلمون مهمّة القيادة الفكرية والروحية للأمة . . أن يكونوا في مستوى التحديات . فيما يمثلونه من علم واسع عميق في نطاق اختصاصاتهم وفيما يمثلونه من جهد دائب للسعي في تعزيز الإسلام في حركته الدائبة نحو تغيير الحياة على صورته .

وفي ضوء ذلك كان يدعو ويعمل على أن يدفعم إلى التنوّع

في الثقـافة والتعمق فيـما يتعلمـونـه منهـا كـما كـان يمـلأ نفـوسهم وأفكارهم بالوعي الذي يجعل منها شيئاً متحركاً في أجواء الحياة لا مجـرد شيء جامـد في ذهن صاحبـه وكان يـوجههم إلى أن يعيشوا المسؤولية بأعمق مشاعرهـا وحركيتهـا وقد استـطاع أن يدفـع ألى السـاحـة بنمـاذج جيّـدة تلتقي جميعـاً في وعيهـا الـرسـالي وإن اختلفت فيما تملك من الثقافة والفكر.

واننا نشعر بأن على العاملين من أجل الاسـلام أن يعملوا في هـذا الاتجـاه وذلـك لإخـراج الـوسط العلمي الـديني من الجـوّ التقليدي الذي يقود إلى جوّ الجمود وفقدان الفاعلية والحركية مما يعـطي صورة غـير جيّدة عن الـدين من جهة، ويضيـع كثيراً من الطاقات التي يمكن أن تحقق للإسلام خطوات كبيرة إلى الأمام

التجديد في الدراسات الأصولية والفقهية :

- محـاولته النـاجحة في تجـديد الأسلوب للدراسـات الأصوليـة والفقهيـة ، وقد تمثـل ذلك في كتـابه « دروس في علم الأصـول » الذي استطاع أن يعطي لكثير من الموضوعـات الأصوليـة عناوين جـديدة مستقلّة كـانت ضـائعـة في غمـار أبحـاث أخـرى ، كـما استطاع أن ينظّم هذه الموضوعات في تخـطيط جديـد يحتفظ للعلم بالعمق ويطلق التوجّه نحو التجديد في المضمون والشكل . . وقد كان يعمل على تبويب الفقه في أبواب جديدة تختلف عن الأبواب المعـروفات في الفهـرسة الفقهيـة السابقـة لعلم الفقه تبعـاً لتجدد

الحاجات الحياتية التي تقتضي وضع كل مسألة في موقعها الطبيعي من حاجة الانسان .

إحياء ذكراه بمتابعة مسيرته

هذه هي بعض الأدوار البارزة في حياته . . ونحن نشعر بأن الحياة لو امتدت به لاستطاع أن يحقق الكثير الكثير في تطوير هذه الأدوار وتعميقها وتوسيعها . . كما نشعر بأن على رفاقه وتلاميذه أن يجددوا ذكراه بالعمل على إعطاء هذه الأدوار امتداداً في حياة الإسلام والمسلمين . . لأن ذلك هو السبيل الوحيد لبقاء اسم الشهيد السعيد حيّاً فاعلاً في امتداد المسيرة الطويلة للإسلام في سبيل تحقيق الأهداف الكبيرة التي يرضاها الله ورسوله .

واننا لنرجو ـ في هذا المجال ـ من الطاقات الحيّة الفاعلة التي تعمل في خط الشهيد السعيد ، أن لا تتجمد أمام ذكراه كشخص فتنفصل بذلك عن مسيرته بل تحاول أن تنطلق من ذكراه كقضية ، لأن عظمة الشهيد السعيد أنه كان قضية تتحرك في شخص لتمتد الى غيره فيما تمتد به القضايافي حياةالآخرين . . وعلى ضوء ذلك فلا بد لهم أن يلتقوا عند القضايا الكبيرة التي عاناها في حياته فيتجاوزا كثيراً من السلبيات التي يمكن أن يتجاوزوها ، ويتفاهموا على القضايا التي لا يمكن تجاوزها بالتأكيد على الإيجابيات . . فإن ذلك هو معنى الإخلاص لذكراه ، وان ذلك هو معنى الثأر الإيجابي الواعي له . . أن يتحرك الاسلام من حيث أرادوا له أن يقف ويتجمد ، وان يتغير الواقع المنحرف من

حيث أرادوا لـه أن يستمـر . . وأن يسقط حكم الـطاغـوت من حيث أراد لنفسه وأراد له الآخرون أن يبقى .

ان الساحة تنتظر التقاء الخطى على قاعدة واحدة . . لترحب بكل الخطى الطاهرة النظيفة . . ولن تنتظر الخطى المبعثرة على خلافات جانبية لا تقدم شيئاً ولا تؤخر . . ان الشهيد السعيد ليس سخصاً ينتمي بل هو رسالة ينطلق من خلالها الرسالية ، ولذلك فانهم يعيشون الانتماء اليه بقدر انطلاقتهم الرسالية من خلال خطّه الأصيل .

وكلمة أخيرة نثيرها أمام ذكراه . .

لقد كانت حياة شهيدنا الكبير حياة حافلة متنوعة . . في أحداثها وتطلعاتها وخلفياتها وقضاياها الخاصة والعامة . . ولا بد أن هناك قصصاً صغيرةً أو كبيرةً يمكن أن تروى عن حياته . . ولا بد أن هناك جوانب غير واضحة من جوانب علاقاته واتصالاته . . ولا بد أن هناك أفكار كان يسرّها الى تلامذته وإخوانه . . فلا بد من أن تتضافر الجهود على رواية كل ذلك على كتابة كل ذلك من أجل أن ننطلق في تحليل جديد شامل لحياته لتكون درساً للعاملين في مستوى القيادة وفي مستوى القاعدة . . فإذا كانت لحياته خصوصيات في حياته . فقد ذابت كل الظروف الضاغطة التي كانت تمنع من اذاعة اسراره . . لأن الجميع قد أصبح ملك الأمة والإسلام بقدر ما كان الشهيد السعيد ملكاً لأمته وإسلامه . .

يجب تدوين حياة الشهيد بالتفصيل :

انا نشعر بأن الفقيد لم يحصل الآن على كتابة شاملة مفصلة فلتكن ذكراه الأولى هذه ـ حافزاً على تسجيل كل ما نعرفه ولا سيما فيما يتعلق بتفاصيل جهاده السياسي الاسلامي في علاقته بالقاعدة وبالقيادات الاسلامية وبالحاكمين المنحرفين في صراعه المرير معهم . .

والحمد لله رب العالمين .

فلم يكن السيد محمد باقر الصدر مجرد اسم كبير من الأسماء الكبيرة التي تحتل مكانة علمية مرموقة في المجتمع الكبير التي تحتل مكانة علمية مرموقة في المجتمع الاسلامي بل هو عبقرية اسلامية فريدة امتدت آفاقها إلى أكثر من مجال وانطلقت جذورها في العمق الأصيل من حياة الفكر الاسلامي وأصالته فإذا تحرك في أي موقع من مواقع ثقافته فإنك لن تجد الفكر الذي يسير على الخطى القديمة التي سار عليها الآخرون من قبله . بل تجد الفكر الجديد الذي يحاول أن يشق لنفسه درباً جديداً يسير عليها وحده ليسير الآخرون من خلالها معه إنه الإحساس بالأصالة في الفكر والأسلوب في المدرسة الإسلامية الجديدة .

ولم يكن من المفكرين الذين يعيشون الفكر من مواقع الترف التجريدي الذي يتعامل مع التجريد بعيداً عن حركة الواقع في حياة الناس ، بل كان فكره حركةً حيّة تواجه الواقع من خلال

مشـاكله وتحديـاته لتحـلّ له تلك المشـاكل ولتـواجه من مـواقعـه التحديات . .

ويذكر العلماء أن المدّ الالحادي الذي واجه العـراق فيما بعـد ثورة « ١٤ تموز » كان يتحرك في اندفاعة قويّـة محاولاً احتـواء كل التطلعات المطروحة على الساحة ووقف الشهيد العظيم مع جمـاعة العلماء في وجه هذا المدّ من موقع اسلامي متقدم ليتحرك في عـدة أسـاليب المنشـورات ، المجلة والكتـاب ، والمـوقف الحـازم . . والتخطيط الواعي لعمل اسلامي هادف . . . وكانت المنشـورات الصـادرة عن جماعـة العلماء في النجف الأشـرف مكتـوبـة بقلمـه وكانت مجلة الأضواء الصـادرة عن هـذه الجمـاعة بـاشرافـه حيث كان يكتب افتتاحيتها تحت عنوان « رسالتنا » في أعدادها الأولى ، وكانت المواقف الحـاسمة المتحـركة في تخـطيط واع حازم أم . من بين اهتماماته مع رفاقه من العاملين في الحقل الاسلامي العام .

وكان يرى أن القضية لا تواجه بالمواقف السريعة أو العاطفية مـا لم يكن هناك فكـر يتحدى الفكـر المنحرف سـواء في الجوانب الفلسفية المتعلقة بالعقيدة أو في الجوانب العملية المتعلقة بالحياة ، فكانت « المدرسة الاسلاميـة » وكان كتـاب « فلسفتنا » الـذي لا يـزال الكتاب الأول في الكتب التي وقفت امـام الفكـر المـاركسي موقفاً علمياً صلباً لا يـلي ولا ينعقد بـل يواجـه المشاكـل الفكريـة بحلول فكرية عميقة ، . . وكان كتاب اقتصادنا ، الذي استطاع من خلاله ـ ولأول مرة ـ أن يفلسف المذهب الاقتصادي للإسـلام

ويمنحه هيكلية فكرية رائعة بعد أن كان مجرد أحكام شرعية متناثرة . . وكان كتابه « الأسس المنطقية للإستقراء » أحد القمم الفلسفية الاسلامية المعاصرة . . في عمقه وأصالته وتجديده . . وبقيت كتبه الإسلامية المتنوعة حاجة إسلامية دائمة لكل مثقف ومفكر يريد أن يعرف الإسلام فكراً وعقيدةً وفلسفةً . . واستطاعت أن تحقق لنفسها امتداداً في بناء الجيل المسلم الصاعد الذي يتجه إلى الجهاد الإسلامي من أجل حياة إسلامية أفضل . مما جعله بحق استاذ هذا الجيل الأوّل . .

ولم يبتعد عن مواقع التحرك الاسلامي الصاعد في العراق وفي غيره من البلاد الاسلامية بل كان يقود المسيرة من موقع فكره ورعايته وتوجيهه من خلال رسائله وتلاميذه مما جعله حركة دائبة في أكثر من اتجاه . . واننا لنعرف دوره الكبير في تأسيس ودفع الحركة الإسلامية الى الأمام، منذ السنوات الأولى المتقدمة لشبابه وجهاده وكان له موقف حاسم في تأييد ، الثورة الاسلامية في ايران من موقع شعوره بأنها تمثل الحلم الكبير الذي عاش له وعمل من أجله ، ولم يكن تأييده لها كلمات تقل ، ولكنه كان معاناة فكرية وعملية تمثلت في رسائله الفكرية الصغيرة التي خطط فيها للمفاهيم العامة لحركة الدولة الاسلامية ، وفي مواقفه الصادمة أمام الضغط والإرهاب الذي كان يواجهه ، حتى أدّى إلى وضعه في الإقامة الجبرية في منزله مدة ثمانية أشهر أو تزيد ولم يقضِ هذه المدة في استرخاء وانفعال ذاتي ، بل تفرّغ فيها للتأمل وللتفكير وللتأليف في أكثر من موضوع اسلامي فكري مما تحتاجه

المكتبة الاسلامية والجيل المسلم الصاعد ولمّا أفرج عنه ، بقي في بيته ضمن اعتقال غير رسمي ، لا يدخل عليه إلا القليلين من تلامذته ومقلديه ممن كانوا يغامرون في زيارته ويتعرضون للملاحقة والتحقيق وفي نهاية المطاف . . كانت مأساة اعتقالة ونقله الى جهة مجهولة واعدامه مع شقيقته المجاهدة الكاتبة الاسلامية التي عاشت مع أخيها من أجل الإسلام فيما عملت وفيما كتبت وفيما جاهدت وماتت معه شهيدة الحق والفكر والإسلام .

ويظل السؤال يطرح نفسه . . لماذا يخاف الحكام من الفكر والمفكرين . . ومن الإسلام الحق النيّر الذي لا يهادن ولا يجامل ولا يتراجع . . والجواب يظل هو الجواب . . انهم يعيشون الخوف من كل شيء حولهم . . حتى من الوهم ، لأنهم لا يملكون أي أساس معقول لوجودهم في الحكم لأنهم لا يمثلون شيئاً ، إلا الطموحات الذاتية المعقدة التي يدفعون ثمنها للكفر والكافرين والإستعمار والمستعمرين . . وتبقى حرية الفكر والإسلام في بلاد المسلمين تبحث عن شهداء ويبقى الإسلام شامخاً في المستوى الكبير الكبير الذي يستقبل الشهداء الكبار الذين هم في حجم الشهيد الصدر . . وتظل القافلة تسير وتسير ، وغداً يطلع فجر الشهداء . . ويبقى السيد محمد باقر الصدر شعلة من فكر وعطاء وجهاد تضيء الدرب السائر في طريق الله .

المؤلفات المطبوعة للمؤلف

١ ـ اسلوب الدعوة في القرآن . (الطبعة الرابعة)

٢ ـ قضاياناعلى ضوء الاسلام . « الطبعة الخامسة » .

٣ ـ خطوات على طريق الاسلام .« الطبعة الرابعة»

٤ ـ الاسلام ومنطق القوة . « الطبعة الثالثة » .

٥ ـ الحوار في القرآن . الطبعة الثالثة»

٦ ـ مفاهيم اسلامية عامة « عشر حلقات » الطبعة الخامسة .

٧ ـ من وحي القرآن « تفسير » صدر منه « احد عشر جزء » .

٨ ـ الدين بين الاخلاق والقانون .

٩ ـ يا ظلال الاسلام (رباعيات) . « الطبعة الثانية »

١٠ ـ قصائد للاسلام والحياة (ديوان شعر) .

١١ ـ آفاق اسلامية . « الطبعة الثانية»

١٢ ـ رسالة التآخي (اربع حلقات) (الطبعة الثانية) .

١٣ ـ الوحدة الاسلامية بين الواقع والمثال « الطبعة الثانية » .

١٤ ـ دور المرأة الرسالي .

١٥ ـ هموم وقضايا الوحدة الإسلامية .

١٦ ـ من أجل الاسلام (ثمانية حلقات) .

١٧ ـ على طريق كربلاء (الحلقة الاولى) .

١٨ ـ مع الحكمة بخط الإسلام .

الفهرس

الموضوع ــــــــــــــــــــــــــ الصفحة